

تدبر جزء تبارك

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

تدبر جزء تبارك



تدبر جزء تبارك

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الرياض ـ طريق الملك عبد الله بن عبد العزيز ـ حي المغرّزات

مبنى رقم ٣٧٧٦ ـ هاتف ٤٥٤٤٧٦٣ ٠١١

الرمز البريدي ١٢٤٨٢ ـ الرمز الإضافي ٦٥٤٠

البريد الحاسوبي: malem@tdabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر سليمان محمد

تدبر جزء تبارك / ناصر سليمان محمد العمر الرياض ـ ١٤٣٩هـ

٢٤٠ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

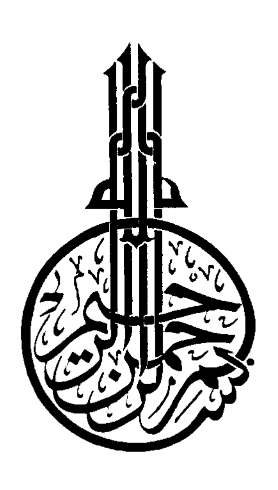
ردمك: ١ـ٦٣٠١ـ٠٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١- القرآن - جزء عم - تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٤٠٢٤ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٤٠٢٤ / ١٤٣٩

ردمك: ١ـ٦٣٠١ـ٠٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد، فكنتُ قد بدأتُ دروسًا في عام ١٤٣٤هـ، بجامع الراجحي في مدينة الرياض العامرة، زادها ربنا بمنّه وكرمه عمارة بالتقوى، وكان موضوعها تدبُّر قصار السُّوَر، ثم يسَّر الله بفضله أن فرغتُ من جزء عمَّ، ثم تبارك، ثم المجادلة، ثم الذاريات، وأسأل الله أن ييسر التمام ويبلغنا الآمال.

وقد قام المكتب العلمي في (مؤسسة ديوان المسلم) مشكورًا، بإعادة صياغة هاتيك المجالس والدروس، وتحريرها، فأخرج أولًا جزء عمَّ ثم ثنَّى بهذا الجزء؛ (جزء تبارك)، وذلك على ترتيب الأجزاء باعتبار الدروس، وهو المناسب فيما نرى لكون ذلك تدرُّجًا من قصار السُّوَر إلى طوالها، ومما تمسُّ حاجة العامة إليه إلى ما بَعدَه، وذلك أنَّ أكثر الناس يقرؤون المُفصَّل ولا سيما قصاره ثم أوساطه، ثم يتدرَّجون بعده. ثم إنَّ هذا الترتيب أليق برعاية النزول، ولاسيما في جزأي عم وتبارك؛ إذ الغالب عليهما المكيُّ وما نزل أولًا، كما أن الغالب على الطّوال المدنيُّ وما نزل آخرًا، وإن كان في جلّ أجزاء القرآن ما هو مكيّ وما هو مدنيّ.

وقـد يـسَّر الله ﷻ اسـتئناف جـزء الأحقـاف، مطلع هـذا العـام ١٤٣٩هـ، ولعله مـا إن ينقـضي حتى يتهيـأ إخراجُـه مع جـزأي المجادلـة والذاريات.

واللهَ أسألُ أن يبارك في الجهود، ويكتب لهذا العمل القبول.

والشـكر موصـول لـكلّ من سـاهم في إخراج هـذا المـشروع المبـارك، ولكلّ من يبـدي نصيحـةً تفيد في هـذا العمل مسـتقبلًا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

ناصر بن سليمان العمر

١٤٣٨/١٢/٦هـ



بين يدي سورة الملك

أسماؤها:

تسمى هذه السورة بـ «سورة تبارك»، و«﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»، و«تبارك الملك»، و«الملك»، و«المنجية»، و«المانعة»، و«الواقية»، و«المنّاعة»، و«المُجادلة»[(١)].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها ثلاث مئة وَخمس وَثلاثون كلمة، وحروفها ألف وَثلاث مئة وَثلاثة عشر حرفًا، وَهي إحدَى وَثلاثُونَ آية في المدني الأخير والمكي وَثلاثُونَ في عدد الباقينَ؛ اختلافها آية: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، عدها المدني الأخير والمكي وَلم يعدها الباقُونَ، وعدها شيبَة وَلم يعدها أبُو جَعفَر»[(٢)].

فضلها وما ورد فيها:

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سورة الملك هي المانعة، تمنع عذاب القبر**»[(٣)].

وعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، عَن النَّبيّ ﷺ قالَ: «**إنَّ سُورَةً منَ القُرآن، ثَلاثُونَ آيَةً،**

(١) يراجع: التحرير والتنوير (٥/٢٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥١).
(٣) طبقات الأصبهانيين، ص(٢٦٤)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١١٤٠).

شَفَعَت لرَجُل حَتّى غُفرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾»(١).

وعن جابر ﷺ: «أَنّ النَّبِيّ ﷺ كانَ لا يَنامُ حَتّى يَقرأَ ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾، وَ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾»(٢).

موضوعاتها:

● الإرشاد إلى تحقيق العبودية لمن خلقنا ليبلونا بعملنا.

● الإرشاد إلى التفكر في خلق الله؛ كالسماء وإحكامها، والأرض وتيسير سبل العيش فيها، وقرب الماء الذي يحتاج إليه الناس من سطحها؛ ليسهل إخراجه، والطير وإمساكه في رحب الفضاء.

● مآل الكافرين وما ينتظرهم من العذاب في النار بسبب تكذيبهم بالبعث والنشور، وحكاية ما يكون منهم من الندم في الآخرة.

● بيان ما في مراقبة الله تعالى من الأجر الكبير، والإخبار بعلم الله المحيط بكل شيء، وهذا مما يحمل على تحقيق مراقبته.

● التخويف من الله بذكر أنواع من العذاب التي حلّت بساحة بعض الكافرين.

● المقارنة بين حال المستقيمين والمعرضين في الآخرة.

مقصدها:

تأكيد أهمية الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ببيان حال المؤمنين، وحال المكذبين بالرسل، وذكر الآيات الدالة على قدرة الله على كل شيء.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٩١)، وهو في صحيح الجامع (٢٠٩١).
(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٥).

سورة الملك: تأملات ووقفات

الآيات (١ـ٥)

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ (٢) ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ (٣) ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ (٤) وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥)﴾

وردت ﴿تَبَٰرَكَ﴾ في القرآن تسع مرات في سبع سور، وابتدأت بها سورتان: الفرقان، والملك، وتكررت ﴿تَبَٰرَكَ﴾ في سورة الفرقان ثلاث مرات، ووردت مرة واحدة في سورة الأعراف، والمؤمنون، وغافر، والزخرف، والرحمن، والملك.

وهي لفظة لا تقال إلا في حق الله تعالى، فلا يقال: تباركت! وإنما بوركت، أو بارك الله فيك، لأنه لا أحد يتبارك بنفسه إلا الله ﷻ، وأما غيره فإنما يباركه الله تعالى.

والبركة: ثبوت الخير ودوامه وكثرته، فمعنى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: كثر خيره وإنعامه، وعم إحسانه وإفضاله ﷻ.

وقرن ربنا تباركه ﷻ بصفة الملك، وهذا يفيد أن خلقه وتصرفه فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، كلها خير صادرة عن حكمته ﷻ، فالشر ليس إليه، بل الشر في حكم غيره، وفي بعض مخلوقاته، التي هي تحت قدرته، لا تخرج عنها فيما تصدره في الدنيا وفي عاقبتها يوم القيامة.

والقدرة الإلهية التي ذكرت في أول آيات هذه السورة تبعتها آيات تؤكدها وترشد الناس إلى الإيمان بها، فذكر الله في السورة خلق الموت والحياة، وخلق السماوات والأرض، وتزيين السماء بالنجوم التي تُرجَم بها الشياطين، وخلق الجنة والنار، وذكر فيها صفة علمه، ومن قدرته ﷻ أن جعل الأرض لنا ذلولًا، وذكر فيها تعذيبه للكافرين، وأخذهم بجرمهم، ومن قدرته ﷻ إمساك الطير في السماء.

وقدرته تعالى تُفصح عن المُلك الذي بيده، فهو مُلك كامل، أما مُلك غيره فناقص كما لا يخفى، والذي جعلهم ملوكًا مالك الملك سبحانه، قال ربنا: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾، والله تعالى خالق كل شيء لكنه خصَّ الموت والحياة ليُبيّن الغاية التي من أجلها أوجد الخليقة، ألا وهي الابتلاء والاختبار، وفي ذيل ذلك تذكير؛ لئلا يغفل الإنسان عن المصير الذي ينتظره، فالحياة ذُكرت لنعلم أن الغاية منها تحقيق العبادة لله، وأتبعها بذكر الموت، وهو المصير الذي ينتظر كلَّ حي، فإذا مات ابن آدم فقد قامت قيامته، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.

وقدَّم الموت على الحياة لأنه يحمل على العمل والاستعداد لليوم الآخر، وفيه تنبيه على أنه مخلوق، فيكون أمرًا وجوديًا.

وقيل: قدم الموت على الحياة؛ لأنه الأصل، قال ربنا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، تكرر في القرآن، قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف]. فالابتلاء هو الغاية من الخلق، وليست العبرة بكثرة العمل، وإنما بحُسنه، وتحسينُه يكون بالإخلاص لله فيه، وموافقة السنة، فكثرةُ العمل خير إذا أُخلص فيه ووافق الشرع، ففي الصحيحين، عن عَبد الله بنِ عَمرو ﷺ، قالَ: أُخبرَ رَسُولُ الله ﷺ، أَنّي أَقُولُ: والله لَأَصُومَنَّ النَّهارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيلَ ما عشتُ، فَقُلتُ لَهُ: قَد قُلتُهُ بأَبي أَنتَ وَأُمّي، قالَ: «**فإنَّكَ لاَ تَستَطيعُ ذلكَ، فَصُم وَأَفطر، وَقُم وَنَم، وَصُم منَ الشَّهر ثَلاثَةَ أَيّام، فَإنَّ الحَسَنَةَ بعَشر أَمثالها، وَذلكَ مثلُ صيام الدَّهر**»، قُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ من ذَلكَ، قالَ: «**فَصُم يَومًا وَأَفطر يومَين**»، قُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ من ذَلكَ، قالَ: «**فَصُم يومًا وَأَفطر يومًا، فَذَلكَ صيامُ داوُدَ ﷺ، وَهُوَ أَفضَلُ الصّيام**»، فَقُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ من ذَلكَ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ أَفضَلَ من ذَلكَ**»[1].

ويدل لهذا المعنى حديث آخر، قال نبينا ﷺ: «**إذا نَعَسَ أَحَدُكم وَهُوَ يُصَلّي فَليَرقُد، حَتّى يَذهَبَ عَنهُ النَّومُ، فَإنَّ أَحَدَكم إذا صَلّى وَهُوَ ناعس، لاَ يَدري لَعَلَّهُ يَستَغفرُ فَيَسُبُّ نَفسَهُ**»[2].

فالإكثار من العمل الصالح مطلوب، لكن بغير مخالفة للسنة، والأَولى إتقان العمل وإن قل، والمداومة عليه.

---

(١) البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).
(٢) البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

وأمـا الإكثـار المشروع مع الإحسـان فمرتبـة أعلى، وقـد كان الصحابة مكثرين مـن فعـل الخير، وإمامهـم الصديـق ﷺ، وأُنبّهُ هنـا إلى كلمـة تتردد على الألسـنة لا تخلـو مـن نظـر، وهي: «مـا سـبقهم أبـو بكـر بكـثرة صيـام أو بكـثرة صـلاة، ولكـن بـشيء وقـر في قلبـه»! وقـد يـروي بعضهـم هـذا مرفـوعًا إلى النـبي ﷺ، ولكـن الصحيـح كما نبـه ابن القيـم في المنار المنيـف أن هذا مـن كلام أبي بكـر بـن عيـاش[1] ﷺ، والصحيـح أنه سـبقهم بكـثرة العمل، وكمـال الإيمان، وممـا يُبينَ ذلـك: أن النبي ﷺ سـأل يومًـا أصحابه: «**مـن أصبح منكم اليـوم صائمًـا؟**» قال أبو بكـر: أنـا. «**مـن أصبـح منكم اليـوم تصدق على مسـكين؟**» يقـول أبو بكـر: أنا. يقـول: «**مـن عاد مريضًـا؟**» يقـول أبو بكـر: أنـا. يقول: «**مـن تبع جنـازة؟**» يقول أبو بكـر: أنـا[2]، وبـذله في أمـور المسـلمين وحاجـات الناس معـروف، وكذلك سـبقه ﷺ وأرضاه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾، فخلـق السـماوات خلـق بديـع، وهـذا يرشـد إلى أهميـة إتقـان العمـل، فـالله كتـب الإحسـان على كل شيء، ويحـب إذا عمـل أحدُنـا عمـلًا أن يتقنــه.

فتأمـل في هـذا النظام الدقيـق، ومن آثـاره: أن علماء الفلك يسـتطيعون معرفة زمـان شروق الشـمس بعد مئـة عام، لأن الكون يسـير بنظام دقيـق، لا اختلال فيه بوجه مـن الوجوه.

ثـم يقـول: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ أي من تبايـن أو خلل، فلا فوضى في صنـع الله تعالى، بل أحسـن كل شيء خلقه ﷺ.

---

(١) انظر المنار المنيف ص(١١٥)، وأما المرفوع فمن أحاديث الإحياء قال العراقي: لم أجده مرفوعاً. وعند بعضهم مسند من قول أبي بكر بن عبد الله المزني، انظر المقاصد الحسنة ص(٥٨٤).

(٢) مسلم (١٠٢٨).

﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ وفي هـذا الخطـاب تقريع للمشركـين: أيـن ذهبـت عقولكـم؟ أيـن أفئدتكـم؟ أليسـت مظاهـر قـدرة الله تعـالى باديـة في هـذه السـماوات؟ أليـس هـذا موجبًـا للتصديـق والإذعان بالبعـث بعـد الابتـلاء في هـذه الحياة؟!

وقـوله: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾، ليـس المقصـود بكرتـين مرتـين، قال ابـن عباس رضي الله عنهما: «مـرة بعـد مـرة»[1]. فيكـرر النظر مـرارًا ويتأمل ليتحقـق اليقين فيمـا أخبر به الله تعالى.

﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾، الخاسـئ: الخائـب الذي لم يظفـر بما طُلب منـه على جهة التحدي، والحسـير: الكليـل المتعب.

ومـا أكـثر التذكير بآية السـماء والأرض في كتاب الله تعالى! ثبـت عن عَبد الله بـن عَبّـاس رضي الله عنهما، أَنَّهُ رَقَدَ عندَ رَسُول الله ﷺ، فاسـتَيقَظَ فَتَسَـوَّكَ وَتَوَضَّـأَ وَهُوَ يقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران] فَقَـرَأَ هَؤُلاء الآيـات حَتَّى خَتَمَ السُّـورَةَ[2].

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾، والنجـوم خلقـت لثلاثة أشـياء: لتكـون زينة للسـماء، قـال ربنـا: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ [الصافات]، وهـذا يدل على أن مـن الإتقـان المحمود العنايـة بتزيين الأشـياء وتجميلها. وخلقـت النجوم كذلك لتكـون رجومًـا للشـياطين، ولهـذا قـال في هـذه الآيـة: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾، وفي موضـع آخـر: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الصافات]. والأمـر الثالـث: أنها علامـات يُهتدَى بها. قـال ربنا: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل].

---

(١) تفسير البغوي (٨/١٧٦).
(٢) البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

الآيات (٦-١١)

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾، بعد ذكر آيات ترشد إلى الله ناسب أن يأتي حديث عمن لم ينتفع بها ممن كفر بالله تعالى.

وقوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ يفيد إهانتهم؛ فدخولهم ليس كدخول الأسوياء وإنما رمي وإلقاء، وقوله: ﴿سَمِعُوا۟﴾ فيه تنبيه على رعب ينتابهم قبل صليّها؛ فهم يرونها ﴿تَفُورُ﴾ أي تغلي، ويسمعون شهيقها، والشهيق صوت يشعر بانغماسهم في دركاتها، بخلاف الزفير الذي يُشعر بصعود وخروج.

وهذه النار التي توعدهم الله بها، قال عنها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾، وهذا يدل على أن للنار إدراكًا، فإنها تُكلّم ربها، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق].

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾، قال ابن كثير ﷺ: «يَكادُ يَنفصلُ بَعضُها من بَعض؛ من شدَّة غيظها عَلَى مَن كَفَرَ بالله»[١]. فالنار تغتاظ غضبًا لله ﷻ.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾، وهذه الآية تدل على أن ربنا سبحانه لا يُعذّب أحدًا إلا بعد بيان الحجة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]. ولذلك كان الصحيح من أقوال أهل العلم: أن الجهل إذا كان غير ناشئ عن استكبار أو تقصير؛ كالإعراض لهوى، أو إيثار للدنيا، فهو عذر، وقد ثبت عَن أَبي ذَرّ الغفاريّ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَد تَجاوَزَ عَن أُمَّتي الخَطأَ، والنّسيانَ، وَما استُكرهُوا عَلَيه**»[٢]. والجهل يلحق بالخطأ.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ تصوير لإقرارهم الذليل لمّا عاينوا العذاب الأليم، ولاعترافهم بجنايتهم على الرسل، ولكن بعد فوات الأوان.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾، وا لآية دليل على أن للهداية وسيلتين: السمع، والعقل. ولذا قال المشركون في اعترافهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. قد يقول قائل: أليس للكفار عقول؟ والجواب: لهم عقول ولكن لا يفقهون بها، ولهذا قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، والعقل الذي نَفَوه هنا هو فعلهم، مصدر عَقَلَ يَعقِلُ عَقلًا، فالقوة المدركة كانت عندهم، لكنهم لم يستعملوها في تَفَهُّم ما جاءت به الرسل، بل جعلوها في معاندتهم، والاعتراض عليهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٩٦).

(٢) ابن ماجه (٢٠٤٣)، وصححه الألباني ﷺ في الإرواء (٢٠٦٢).

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١﴾، اعترفوا ولكن بعد فوات الأوان، وجميل أن يعترف المرء بخطئه في زمن المُهلة؛ ليُصلح من حاله قبل أن يأتي أوان لا يفيد فيه الاعتذار، ولا ينفع فيه الندم.

وسُمُّوا بأصحاب السعير لملازمتهم لها، فالمصاحبة الملازمة، فمن لازم كتاب الله فهو صاحب القرآن الذي نطقت كثير من الأحاديث بعلو رتبته، ومن أعرض عنه صاحَبَ غيره من الأغراض المُردية في النار.

الآيات (١٢ـ١٨)

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾، أي: يخشونه إذا غابوا عن أسباب علم الناس.

واشتملت الآية على بيان ثمرتين لمراقبة الله تعالى، وهما: المغفرة، والجنة. ومن ثمرات ذلك أيضًا:

(١) حلاوة الإيمان:

فعن عبد الله بن معاوية ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**ثلاث من فعلهنَّ فقد طَعم طعمَ الإيمان: مَن عَبَد اللهَ وحدَه وأنه لا إله إلا الله. وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسُه، رافدةً عليه كلَّ عام، ولا يعطي الهرِمَة، ولا الدَّرِنَة، ولا المريضة، ولا الشَّرَطَ اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم**

يأمركم بشره. وزكى نفسه». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «**أن يعلم أن الله ﷻ معه حيث كان**»[١].

وعلمُك بأنَّ الله معك يعني مراقبتك لله، فمن فعل ذلك وجد حلاوة الإيمان بالله.

(٢) البعد عن المعصية:

قال نبيُنا ﷺ: «**قالت الملائكة: ربِّ! ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال: ارقُبُوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة. فإنه تركها من جَرّاي**»، أي: من أجلي[٢].

قال ابن القيم ﵀: «وأرباب الطريق مُجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته»[٣]. وذلك أنَّ الشيطان إذا لم يُستجب له في أمر معصية فإنه يدعو إلى طرقها وذرائعها، ومبدأ ذلك فكرة يُلقي بها في رُوعك، فإذا حرس الإنسان خاطره، وألقى عنه وساوس عدوّ الله فقد قطع عليه السبيل، وجعل بينه وبينه حاجزًا فلم يحظ بمراده منه. وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيبًا[٤].

(٣) تحسين العبادة وأداؤها على أكمل وجه:

فإن نبينا ﷺ ذكر تعريف الإحسان بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٥]. فالمرتبة الأولى عبادة شوق وطلب، فإن تعذَّر عبدتَ عبادة خوف وهرب. فالحديث صريح في أن مراقبة الله تدعو إلى تحسين العبادة.

(١) أبو داود (١٥٨٢)، هو في صحيح الجامع (٣٠٤١).
(٢) مسلم (١٢٩).
(٣) مدارج السالكين (٢/٦٦).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٣٩٦).
(٥) البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

قال ابن منظور ﷺ: «من راقب الله أحسن عمله»[١].

(٤) الإخلاص:

قال الحسن ﷺ: «رحم الله عبدًا وقف عند همّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخّر»[٢].

(٥) الطهر والعفاف:

ففي حديث الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم مدخل الكهف وتوسّلوا إلى الله بصالح أعمالهم قال أحدهم: **«اللهُمَّ كانت لي بنت عمّ كانت أحبَّ الناس إليّ، فأردتُّها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمَّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تُخلّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قَدَرتُ عليها قالت: اتَّق الله ولا تفُضّ الخاتم إلا بحقّه، فتحرَّجتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها. اللَّهُمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها...»**[٣].

وإذا ذُكرت مراقبة الله وما تفضي إليه من طُهر وعفاف ذُكر الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. فلقد راودته امرأةُ العزيز وكانت ذات منصب وجمال ـ على ما قاله أهل التفسير ـ وهي سيدته، وجاء الطلب منها[٤]، وألحت في مسألتها، وكان المكان خاليًا، ويوسف ﷺ يسكن بيتها، وغلقت الأبواب؛ فأمنا من عامل

---

(١) لسان العرب (١٣/١١٥).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم، ص (٣٩٢).

(٣) البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٤) بعض الفسقة قد يشتهي امرأة معينة، فيصده عنها توقُّعُ رفضها، فهذه أمنها يوسف ﷺ بأن كان الطلب وإبداء الرغبة منها.

المفاجأة فلا يدخل أحد عليهما، وكان الكريمُ ﷺ شابًّا قويًا، والأنبياء من أقوى خلق الله، وكان أعزب لا زوجة له، غريبًا، والغريب لا يحتشم احتشام غيره، والمرأة توعَّدته وهدَّدته، مع ذلك كله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾[يوسف]. قال ابن الجوزي ؒ: «يوسف ﷺ لو كان وافق هواه، من كان يكون»؟[1].

(٦) الجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

ولهذه الثمرات قال ابن عطاء ؒ: «أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات»[2].

وقُدّمت المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية قبل التحلية، فتأتي المغفرة، فإذا نُقُّوا من ذنوبهم دخلوا الجنة.

والخشية ثمرة العلم، والغاية منه، فقد «ذُكرَ مَعرُوف عندَ الإمام أَحمَدَ فَقيلَ: قَصيرُ العلم. فَقالَ: أَمسك! وَهَل يُرادُ منَ العلم إلّا ما وَصَلَ إلَيه مَعرُوف؟»[3].

ثم لما ذكر ما أعده من الثواب لأهل خشيته بالغيب ذكَّر العباد بأنه الرقيب عليهم العليم بما هم عاملون، فقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾، فالسر عند ربنا علانية.

والجهر بالقول معروف، والسر ما يكون بصوت خافت لا يسمعه غير المتحدث ومن يهمس إليه بحديثه، وأما ما هو أخفى من ذلك فحديث النفس، قال ربنا: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه].

---

(١) صيد الخاطر، ص (١٣٧).
(٢) الإحياء (٣٩٧/٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨٦/٨).

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾؟ بلى، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ومن معاني ﴿اللَّطِيفُ﴾، أنه الذي يلطف بعبده ووليّه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويُرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحابّ الجليلة، والمقامات النبيلة»[(١)].

و﴿الْخَبِيرُ﴾: العليم ببواطن الأمور؛ فباطنها وظاهرها في علمه سواء.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ الذي خلق ماذا؟ خلق الإنسان وجعل فيه المدارك، فهو يعلم أسراره وما يكون فيه، ويعلم بمخالفته لأمره، كما يعلم أن في الأمر مصلحته، وفي النهي خلافها، فالذي خلق أعلم بخلقه وما يصلحهم، فوجب أن يُلتزم أمرُه ويُجتنب نهيُه.

ومما يتعلق بهذا المعنى أن يُعلم أن الإصلاح لا بُدَّ له من علم وخبرة، فإصلاح أحوال نفسك وبيتك والناس تحتاجُ إلى اللطف والخبرة، قال ربنا عن أهل الكهف: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ [الكهف: ١٩]، أي: وليتلطف في شرائه مع البائع حتى لا ينكشف أمرهم، فالأمور تحتاج إلى أن نأخذ فيها بلطف ليسهل علاجها، وإلا عسر ذلك ولم يكن إلى حل إشكالاتها من سبيل.

(١) تفسير السعدي، ص(٨٧٦).

وقال ربنا: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]، ففي التحسس معنى التلطف والرفق. وثبت عن عائشة ﵂، عن النبي ﷺ، قال: «**إنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ في شَيء إلّا زانَهُ، وَلا يُنزَعُ من شَيء إلّا شانَهُ**»[1]. وكم من زوج وقعت مشكلة في بيته، فبدلاً من حلها بعلم وحكمة ورفق وقع فيما هو أسوأ منها! ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأذكر أني قابلت رجلًا كان ابنه يصلي أحيانًا في المسجد، وأحيانًا في المنزل، فطرده من البيت بدلًا من أن يرفق به! وهذا ليس سبيل إصلاح، فمثل هذا عُرضة لأن يغرق في بحر المعاصي، فبدلًا من معصية واحدة يُرجى زوالها بالموعظة الحسنة أحاطت الظلمات به - بعد طرده - من كل جانب!

وبلغني أن رجلًا كان يسير في الطريق العام، وصوت الغناء يرتفع من آلة معه، فأنكر عليه أحد بانتهار، فلم يستجب، بل زاد من رفع صوت الغناء! ثم لامته نفسه على عنفه، فرجع إليه، وترفَّق به، فما كان منه إلا أن استجاب لوعظه، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾، فمن نعمة الله تعالى أن سخر الأرض صالحة لحياة البشرية على ظهرها، ولو شاء ربك لاضطربت بأهلها فلم تستقر فيها قدم.

---

(١) مسلم (٢٥٩٤).

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾، والرزق العطاء، دخل في هذا كل متقوم يؤكل، وقد يكون الأكل كناية عن استهلاكه فيدخل سائر الرزق المأكول والملبوس والمنتفع به، والرزق أعم من ذلك، قال ربنا: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾ [البقرة]، فجعل الله نيل الرُّتب العالية في الجنة رزقًا.

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾، وكل ما أكلت فمن رزق الله، وبهذا تستدل على خطأ قول من يقول: فلان قطع رزقي! فلا يملك أحد ذلك إلا إذا كتب ذلك، ولو قُدّر لك رزق يصيبك لأصابك.

والأمر بالمشي في مناكبها أمر باتخاذ الأسباب، وهذا لا ينافي التوكل على الله، وهنا ثلاث مسائل تتعلق بالأسباب تحسن الإشارة إليها؛ لمناسبتها:

● الأولى: أن اتخاذها لا ينافي التوكل كما مر معنا، وفي الحديث: «اعقلها وتَوَكَّل»[1]. وفي حديث عمر ﷺ، قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لو أَنَّكُم كُنتُم تَوَكَّلونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِه لَرُزقتُم كَما يُرزَقُ الطَّيرُ تَغدُو خِماصًا وَتَرُوحُ بِطانًا**»[2]، فذكر لها غُدوًّا ورَواحًا تبتغي فيه الرزق.

● الثانية: أن عدم اتخاذ الأسباب قدح في العقل، أرأيتم لو قال زيد: أرجو أن يُولد لي بدون زواج، أيكون عاقلًا؟

● الثالثة: يجب ألا يتعلق القلب بالأسباب، بل بمسبّبها سبحانه، فلو شاء الله لحال بين السبب وأثره، فالله تعالى هو الذي حال بين نار إبراهيم ﷺ وبين حرقه بها، وهذا يدل على أن القلب لا ينبغي أن يتعلق إلا بالله تعالى،

---

(١) الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٦٨).
(٢) الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة (٣١٠).

وكـم ممـن يبذلـون الأسـباب ثـم لا ينالـون مبتغاهـم، وفي المقابل كم ممـن يرزقون مـن حيـث لا يحتسـبون، ييسـر الله لذلـك أسـبابًا مـا علموها.

ثـم قـال تعـالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وهـو الله، والسـماء العلـو، أو هي السـماء المخلوقة وتكون في بمعـنى على، وقـوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي تضطـربُ وتهـتز بشـدة[1]، وقـد يخسـف بأهلها كما خسـف بقارون، فمَـن أمَّنكم مـن عذاب الله؟ وتوجيـه مثل هـذه الأسـئلة يُحـيي ضمـيرَ العاقل.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾، كمـا فعـل بأصحـاب الفيـل، فقد أرسـل عليهم حجـارة من السـماء، فلا ينبـغي أن يأمن أحد مكـر الله تعـالى، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف].

ثـم أعلمهـم ﷺ محققًـا بالـلام أن الأمـن مـن العقوبـة غـرور، وذلـك بتعجيـب وسـؤال إنـكار عـن أَخَذاتـه السـالفة والمَثُلات الخاليـة، ومـا حـلَّ بالأقـوام الماضيـة مـن العقوبـات بنكـير الله عليهـم تكذيبَهـم أو إعراضهـم وعنادهـم، فقـال: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/١٨٠).

الآيات (١٩ ـ ٢٤)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)﴾، عاد السياق إلى ذكر مظاهر تدل على قدرة الله، وتأمَّل في تنوُّع أساليب القرآن الكريم، وتصريف الآيات لهداية الناس! وهذا يدلُّك على رحمة الله وإرادته للخير لهم، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، فيضرب الأمثلة، ويُهدّد بالعقوبة، ويُرغّب في الخير، كل ذلك بأساليب متنوعة؛ ليؤمنوا، وهو لا يحتاج إلينا، بل هو الغني عن العالمين، فما أرحم ربنا بنا!

ومثل هذه الأساليب في الطرح يجدر بالداعية أن يعنى بها؛ تأدُّبًا بأدب القرآن الكريم، وحرصًا على استجابة الناس إلى الهدى، وإعذارًا إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾، وليس خافيًا أن ﴿صَافَّاتٍ﴾ اسم، والاسم يدل على الاستقرار، فهذا هو الأصل في الطير،

أنها تكون صافةً أجنحتها، والقبض استثناء، والفعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يدل على التجدد، لكنه ليس بأصل، بل الأصل الحال التي دل عليها الاسم.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أي من رحمته ﷻ خلقُ ذلك وتقدير أسبابه، وهذه آية عجيبة إذا تفكرنا فيها، ولكن الإلف يُبلّد المشاعر كما قيل!

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، يفيد أن الذي اقتضى ذلك رحمته، فالرحمة: إيصال المسارّ، ودفع المضارّ.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾، بصير «بما يصلح كل شيء من مخلوقاته»، كما قال ابن كثير[1] رحمه الله.

وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾، يغرس في النفوس عقيدةً أكدتها آيات أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران]. وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب كما مر معنا، فالله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وذكر اسم الرحمن هنا دليل على أن نصره لأوليائه من آثار رحمته بهم، فيدفع عنهم تسلُّط عدوهم بظهورهم ونصرهم، وهذا من رحمته بهم.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، في غرور من الشيطان، يغرهم بقوتهم، ويُمنّيهم النصر.

فالمجاهد العاقل يعلم أن النصر بيد الله، ولا يعتمد على قوته وما بيده من أسباب، أو قوة إخوانه، ولا يغره شيء من ذلك، فالنصر بيد الله، وقد قال ربنا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة]. فالصحابة رضي الله عنهم أعجبوا بكثرتهم،

---

(١) راجع تفسيره (٨/١٨٠).

فهُزمـوا في أول الأمـر، وانتصروا في بدر وهم قلـة، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، كل ذلـك لئـلا يتعلـق القلـب بالكـثرة، ولا بـشيء من الأسـباب التي تُتَّخـذ، مـع وجـوب اتخاذهـا عنـد القـدرة عليهـا، ولكنها تُتَّخـذ مـع الاعتماد على مسـبّبها، لا عليها.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾، أي: تمادوا في الإعراض عن الحق.

والإعـراض عـن الخير مذموم، ومن شُـكر نعمـة الله على ما رزقنـا أن نُقبل على الحـق علمًـا وعملًا، وينبـغي أن نُقبل على مـن يُذكّرنا بالله في كل وقـت، ما لم يكـن للإنسـان شـاغل يمنعـه مـن ذلـك، فبعـض الإخـوة كلمـا قـام أحـد ليذكـر الناس انـصرف ولـم يجلـس، وهذا ممـا لا ينبغي، فالمرء لـن يَعدَمَ فائـدة ممن يُذكّـر بالله ولو كان أقـل منـه علمًـا، ولو احتسـب الأجر وبـقي لكان غُنمًـا يُبتغى.

ثـم قـال تعـالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾، وهـذه الآيـة تـدل على أن النـاس رجلان: مؤمن يسـير على هـدى من الله مسـتقيم على صراطـه، وآخـر يمـشي مكبّـا على وجهـه، يعـثر كل سـاعة، ويقـع على وجهه كل حـين، وهـذه حـال كل مـن كفـر بالله فـلا يكـون على هدى مسـتقيم. قـال ربنا في آيـة أخرى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [هـود].

ولله ﷻ صراطـان: صراط في الدنيـا، وصراط في الآخـرة ينصـب على مـتن جهنـم، فمـن حسُـن سـيره على الصراط المسـتقيم حسـن عبـوره على صراط الآخـرة، ومن تنكب الـصراط هنـا كانـت الكلاليـب على جانـبي الجسر أولى بـه، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ].

ثـم قـال ﷻ مذكـرًا بنعمـه الموجبـة للشـكر: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وخص السمع والبصر -من جملة نعمه الكثيرة- لأنهـا أكـثرُ الحواس نفعًـا، وهي من أسـباب الهدايـة. قال ربنـا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقـدم السـمع والبـصر على الفؤاد؛ لأنـه لا يمكـن أن يصل الحق إليـه إلا عن طريقهمـا، وقـدم السـمع؛ لأنـه أكـثرُ نفعًـا مـن البـصر، فكم مـن عالـم لا يبصر! ولكـن لا يكـون عالمًـا مـن لا يسـمع، إلّا إن كان فقـد السـمع في كبره.

والسـؤال: هل شـكرنا هـذه النعم؟ أو هل نسـتخدمها في طاعـة خالقها؟ إن من شـكر الله طاعتـه بهـا، وعـدم جعلهـا أداة للمعصية، وقليـل من الناس من يشـكر الله تعـالى فلا يسـتعين بها على معصيتـه، ولذا قـال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. وهذا كقول ربنا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

وتأمـل في تربيـة هذا الآيـة على الحرص على عـدم الولوغ في الأعـراض بإطلاق الأحـكام الجائـرة، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، ولـم يَنـفِ عنهم أصل الشـكر، مع أن شـكر عامـة الخلـق ليس بـشيء إزاء تلـك النعم.

الآيات (٢٥ ـ ٣٠)

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

لما ذكر ﷻ نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة وأنكر قلة شكرها، أخبر ما يفيد بأن ليس للمشركين حجة في التكذيب إلّا الجهل، والاعتراض بالسؤالات التي ليس وراءها طائل، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾، وهذا سؤال لا يُؤثّر في المطلوب منهم! إذا كان الوعد اليوم أو غدًا أو بعد خمسة آلاف سنة فالواجب أن تُبادر بأداء المطلوب، وهذا الجواب يدل على أن مهمتنا: البلاغ وقول الحق، أما الهداية فهي بيد الله ﷻ، وليس علينا أن نتكلف جواب ما لا نعلم، ولا أن نبحث عما لا فائدة فيه ولا طائل وراءه لمجرد أنا سئلنا عنه!

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والتعبير بالماضي في مثل هذه الآيات لتحقق وقوع ما جاء فيها، فكأنها صارت واقعًا، ومضى عليها أمد، فكانت صالحة للحديث عنها بالأفعال الماضية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾، فلكل امرئ أجل، ولا مجير له من عذاب الله تعالى إن بلغه ولم يعمل بما أمر.

وهذه الآية تعزز مبدأ الحوار، والحوارات في كتاب الله تعالى كثيرة مع سخافة اعتراضات المشركين وأقاويلهم، ومع ذلك لم يكن التوجيه بتركهم أو تعنيفهم وعدم الالتفات إليهم، بل بمجادلتهم ومحاورتهم التي تنفع من شاء الله هدايته منهم.

ثم قال تعالى مقررًا الجواب الذي لا يملك كافر دفعه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، الذي يجير من العذاب هو من أدعوكم إليه، وسماه باسمه الرحمن تحبيبًا وتأليفًا، فهو يُشعرهم بأنهم إذا عادوا وراجعوا الحق رحمهم. وقد ذكر في معرض هذا التقرير خصلة من خصال الإيمان، وهي: التوكل على الله تعالى، قال ربنا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]، والله تعالى وكيل المؤمن الذي صدق بالحق وعمل به، فيهيئ له ما يصلحه ويدفع عنه ما يضره، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء].

وبعد أن خوّفهم الله تعالى من العاقبة بعد موتهم، خوّفهم من الأخذ بالعقوبات في الدنيا فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾، وهم يعلمون أنه لا يأتي بالخير غير الله ﷻ، فوجب أن يطيعوه. وهنا لطيفة ذكرها الزمخشري في الكشاف، فقال: إن رجلًا سمع هذه الآية ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾، فقال: تأتي به الفؤوس والأموال، فأذهب الله ماء عينيه[1].

---

(١) راجع: الكشاف (٥٨٣/٤).

وقد ذكر صالح ابن الإمام أحمد رحمهما الله أن أباه كان إذا أخرج الماء بالدلو، حَمِدَ الله، فلما تكرر منه ذلك سأله ابنه، فقال: ألست تقرأ يا بني: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾؟

فهذه نعمة من نعم الله تعالى، والواجب شكرها، وشكر سائر النعم بالطاعة والانقياد إلى شريعته ﷺ.

سُورَةُ القَلَمِ

بين يدي سورة القلم

هذه السورة المباركة مَلأى بالدروس والعبر والفوائد والاستنباطات والأحكام، وفيها خلاف هل هي مدنية أو مكية؟ والأكثر على أنها مكية[1].

أسماؤها:

سميت بسورة «القلم»، و «﴿نٓ﴾»، و«﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها ثَلاث مئة كلمة، وحروفها ألف ومئتان وَستَّة وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي خَمسُونَ وآيتان في جَميع العدَد لَيسَ فيها اختلاف»[2].

موضوعاتها:

- إبطال مطاعن المشركين في النبي ﷺ.
- إثبات كمالاته ﷺ في الدنيا والآخرة.
- ذمُّ زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمَذمّات كثيرة، وتوعُّدهم بعذاب الآخرة، وببلايا الدنيا.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٥٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٢).

● بيـان أن آلهـة المشركـين لا تغـني عنهـم شـيئًا مـن العـذاب في الدنيـا ولا في الآخرة.

● بيان حال المؤمنين المتقين، وأن الله اجتباهم بالإسلام.

● أمـرُ رسـوله ﷺ بالصـبر في تبليغ الدعـوة، وألا يضجرَ من ذلـك ضجرًا عاتب الله عليه نبيـه يونس[1] ﷺ.

مقصدها:

نزلـت هـذه السـورة المباركة تأنيسًـا وتسـليةً وتثبيتًا. تأنيسًـا لنبينـا ﷺ بتزكية عقلـه وخلقـه، وبوعد ربه له بالأجر، وتسـليةً له بسـبب ما لقيه مـن أذى المشركين، وتثبيتًا لقلبـه ببيـان أن العاقبة للتقوى.

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٥٨ ـ ٥٩).

سورة القلم: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٦)

نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

قال تعالى: ﴿نٓ﴾، وهو أحد الأحرف التي افتتحت بها عدد من سُوَر القرآن، وقد اختلف العلماء في هذه الأحرف المقطعة، التي وردت في القرآن في تسع وعشرين سورة، فبدأت: ص، وق، والقلم بحرف واحد. وبدأت تسع سور بحرفين، وهي: طه، والنمل، ويس، وغافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. وفي ثلاث عشرة سورة ثلاثة أحرف، وهي: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، والشعراء، والقصص. وبدأت الأعراف والرعد بأربعة أحرف، وبدأت مريم والشورى بخمسة أحرف.

ويجمع هذه الأحرف قولك: «نصٌ حكيمٌ قاطعٌ له سرٌ»، وقد وُفِّق من جمعها في هذه الجملة، فهذا مما تفسر به هذه الأحرف.

قال ابن كثير ﵀: «لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها ﷺ عبثًا ولا سدًى؛ ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنًى له بالكلية، فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنًى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام. المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، ما هي، مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها؟ فقال بعضهم: إنما ذكرت لنعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوةً وكتابةً. وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين، حتى إذا استمعوا له تلي عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير أيضًا، وهو ضعيف أيضًا؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك -أيضًا- لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطابًا للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه. وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورةً»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٦٠).

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢﴾، بعد أن أقسم بالقلم وما يسطرون، أي: وما يكتبون، جاء جواب القسم؛ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾، هذه الجمل كلها جواب للقسم.

فما هو القلم؟ اختلف العلماء في ذلك، فبعض العلماء قال: هو القلم الذي كتبت به المقادير، وقد ثبت في جامع الترمذي قول نبينا ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ الله القَلَمَ، فَقالَ: اكتُب، فَقالَ: ما أَكتُبُ؟ قالَ: اكتُب القَدَرَ؛ ما كانَ وَما هُوَ كائِنٌ إِلَى الأَبَد**»[1]. والقول الثاني: أن المراد: جنس القلم الذي نكتب به. وقيل: هو ما تكتب به الملائكة الحفظة[2]. ولا منافاة بين هذه الأقوال، ولا مانع من أن تُحمل الآية عليها كلها، ولعل هذه التفاسير من جملة التفسير بالمثال لجنس القلم الذي يشمل ذلك كله.

● وأشير هنا إلى مسألة حُقَّ لي ولغيري أن نكررها كثيرًا: هل يدل القسم بالقلم هنا على تسويغ الحلف بغير الله؟

الجواب: لا؛ فالله ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، أما الخلق فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله وبأسمائه وبصفاته، فعن سَعد بن عُبَيدَة، أَنَّ ابنَ عُمَرَ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لاَ والكَعبَةِ، فَقالَ ابنُ عُمَرَ: لاَ يُحلَفُ بغَير الله، فَإِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَن حَلَفَ بغَير الله فَقَد كَفَرَ أَو أَشرَكَ**»[3].

فهل يجوز أن نحلف بآيات الله؟ إذا كان المراد آيات الله الكونية فلا يجوز؛ لأنها مخلوقة، أما إذا أريد بذلك القرآن فلا حرج، ولو كان مخلوقًا ما جاز القسم به، ولكنه كلام الله غير مخلوق.

---

(١) الترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في تخريج شرح الطحاوية، ص(٢٧١).
(٢) ينظر: زاد المسير (٣١٩/٤).
(٣) الترمذي (١٥٣٥)، وهو في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

وهـل يجـوز القسـم بالمصحـف؟ يقال: مـاذا يُقصـد بالمصحـف؟ إن قصدت به هـذا الكتـاب المطبوع فلا يجـوز، أما إن قصدت بـه كلام الله فيجـوز والتعبير عنه بالمصحف خطـأ يُجتنَب.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، أي يخطـون ويكتبـون بالقلـم، وهذا شـأن كل قلـم، وهو يؤكد التفسـير المختار، والله أعلم.

وقـول ربنـا: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، قسَـم آخـر بالكتابـة، وجنسـها كذلـك شريـف يَشرُف بـه صاحبـه، ففيـه بيـان أهميـة الكتابـة، ونحـن مقـصرون في هـذا الباب. وفوائـد الكتابـة في تقييـد العلـم ونـشره والذب عنـه ظاهـرة، وكذلـك فائدتهـا في حفـظ الحقـوق، والتقصـير حاصـل في الأمرين، فكـم ندمنا على التفريـط في أمور لـم نكتبهـا! وكم نشـأت مـن خلافات بسـبب إهمال بعـض الناس كتابـة الدَّين أو توثيقـه، وهـذا أفـضى إلى ضيـاع الحقـوق، ولذا أُمرنـا في آيـة الدين بكتابتـه. ومن أهـم مـا يكتـب الوصية، وإهمـال ذلك كم أحـدث من نـزاع بين الورثـة! مع أن الوصيـة أعـم من الحقوق الماليّـة، وهي في الحقـوق الشرعية قد تكـون أعظم وأهم.

وربنا يقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار]، فهم حفظة، يكتبون أعمالنا، وهذا يدل على أهمية الكتابة.

وممـا يـدل على أهميتهـا حديـث الصحيحـين، عَـن عَبـد الله بن عُمَـرَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قـالَ: **«مـا حَـقُّ امـرئٍ مُسـلم لَهُ شَيء يُـوصي فيـه، يَبيـتُ لَيلَتَـين إلَا وَوَصيَّتُـهُ مَكتُوبَـة عنـدَهُ»**[1]. فعـلى كل منا أن يرجع إلى نفسـه بهذا السـؤال: من منـا كتـب وصيتـه؟! كم من إنسـان مـات وذمته مشـغولة بحق لبعـض الورثة لم يُقيّـده، أو بدَيـن ولـم يكتبـه، فانتقـل مـاله إلى ورثته، وضـاع بذلك حـق الدائن؟ والدَّيـن لا تكفـره حـتى الشـهادة في سـبيل الله تعالى.

---

(١) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

والكتابة صيد العلم، فكم نحضر مجالس العلماء، ولا نكتب؛ لكوننا مستوعبين لقولهم، وما هي إلا أيام وننسى، فمن سمع علمًا ولم يكتبه أو يحفظه ينسى منه قريبًا من ثمانين بالمئة كما قال بعض ذوي الاختصاص.

ولله دَرُّ القائل:

العلمُ صَيدٌ والكتابةُ قَيدُهُ ... قيِّد صُيودَكَ بالحبالِ الواثقه

فمِنَ الحَماقةِ أن تصيدَ غزالةً ... وتفكَّها بين الخلائقِ طالقه

ثم بعد ذلك يقول الله ﷻ: ﴿مَآأَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾، أي: «انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل»[1].

● وأُشيرُ إلى مسألة مهمة ذكرها ابن الجوزي[2] رحمه الله؛ من المعلوم أن من أنواع التوسل المشروع: أن تتوسل إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، كأن تقول: اللّٰهمَّ إني أسألك بقراءتي للقرآن الكريم أن يكون كذا وكذا، لكنَّ الأَولى من ذلك أن تتوسل إلى ربك بأن هداك إلى هذا العمل الذي توسلت به، فبدلًا من أن يقال: اللّٰهمَّ ببرّي لوالدي فرّج عني، تقول: اللّٰهمَّ بما وفَّقتني إليه من برّ والدي فرّج عني، وليس الأول حرامًا، وقد ورد في حديث الغار، وإنما الكلام على هو أَولى. فكل خير يصيب المرء وكل سوء يدفع عنه فإنما هو بنعمة الله، ولهذا قال ربنا: ﴿مَآأَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وفي ثناء أهل الجنة على ربهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وعندما امتنَّ الأعراب على ربهم ردَّ عليهم بقوله: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات]، وفي هذه السورة: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾، فصلاحك من الله، وهذا معنًى تنبغي العناية به.

---

(١) فتح القدير (٥/٣١٩).
(٢) يراجع: صيد الخاطر، ص(٣٩٣ ـ ٣٩٥).

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣﴾، وهـذا مـن أعظـم ما يدل على فضـل الله، يَهدي عبـاده، ويُعينهـم على طاعتـه، ويصطفيهم بـأن يجعلهم في أهل اليمـين، ثم يجزل لهم في العطـاء ويثيبهم على ذلك.

فمـا معنى ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾؟ غـير منقطـع[1]. ولمـاذا نعت أجـر نبينـا ﷺ بذلك؟ لأن كل مـن يعمـل عمـلًا صالحًـا مـن أمته، يكـون عملـه في ميزان حسـناته ﷺ؛ فهو الذي أرشـد إلى هذا العمل ودلَّ عليه. قال نبينا ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَـهُ أَجرُهـا، وَأَجـرُ مَـن عَمـلَ بهـا بَعدَهُ، مـن غَـير أن يَنقُصَ مـن أُجُورهم شَيء**»[2]. وهـذا ثابـت في حـق كل مـن أرشـد غـيره إلى خـير، فأجـر المهتـدي بـه في ميزانـه مـا دام يعمل به.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾، وهـذا كذلـك من جواب القسـم، ولو شـهد ثلاثة مـن الصادقـين على أحـد بأنـه على خلـق حسـن لوُجد أنه مـن خير النـاس، فكيف بشـهادة الله تعالى؟!

وكل نـبي مـن الأنبيـاء كان على خُلـق عظيم، وقد أمـر النـبي ﷺ أن يقتدي بهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقـام بهـذه الآيـة خـير قيـام، وأخـذ مـن كل نبي سـبقه خُلُقَه، فاجتمعـت في النبي ﷺ أخلاق الأنبيـاء جميعًا، فنال هـذا الثنـاء من الله ﷻ. وفي مسـند أحمد، عَن سَـعد بن هشـام، قالَ: سَـأَلتُ عائشَـةَ ؓ، فَقُلـتُ: أَخبريـني عَن خُلُق رَسُـول الله ﷺ؟ فَقالَـت: «كانَ خُلُقُـهُ القُرآنَ»[3].

والقـرآن مشـتمل على خلاصـة مـا في الكتـب السـابقة، والنـبي ﷺ إمـام في كل خلـق حسـن ندب إليه ربنـا فيه، فما أعظم أخلاقـه! والواجب على مـن أراد التحقُّق مـن حسـن الخلـق أن يمتثـل القرآن ويقتـدي بالنبي ﷺ، فحسـن الخلق هـو ما كان عليـه ﷺ، لا مـا يظنـه الناس مـن المظاهـر الخاوية الوافـدة من الـشرق أو الغرب.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥٢٨/٢٣).
(٢) صحيح مسلم (٧٠٤).
(٣) أحمد (٢٥٣٠٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط ؒ في حاشيته عليه.

وقول ربنا: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾، تدل على تمكُّن النبي ﷺ من الأخلاق الفاضلة، فهو متَّصف بها، متمكّن منها، كمن ركب مركوبًا وتمكَّن عليه، فهو يمضي به في سكينة وطمأنينة.

وثناء الله تعالى على نبينا ﷺ بالخلق العظيم في معرض ذم المكذبين يدل على أن حامل الحق صاحب الخلق الحسن حَريّ أن يُجاب، فأثر الأخلاق الحسنة في الاستجابة للداعية عظيم، والداعية الذي لا يتخلَّق بالأخلاق التي يدعو الناس إليها يكون أثر دعوته ضعيفًا! والدعوة بالفعال أبلغ من الدعوة بالمقال، ومما يدل على هذا المعنى أن نبينا ﷺ لما فَرَغَ من قَضيَّة الكتاب في الحديبية، قالَ لأَصحابه: «**قُومُوا فانحَرُوا ثُمَّ احلقُوا**»، قالَ المسور بن مخرمة ﷺ: فَوالله ما قامَ منهُم رَجُل حَتَّى قالَ ذَلكَ ثَلاَثَ مَرّات، فَلَمّا لَم يَقُم منهُم أَحَد دَخَلَ عَلَى أُمّ سَلَمَةَ ﷺ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقيَ منَ النّاس، فَقالَت له: يا نَبيَّ الله، أَتُحبُّ ذَلكَ؟ اخرُج ثُمَّ لاَ تُكَلّم أَحَدًا منهُم كَلمَةً، حَتَّى تَنحَرَ بُدنَكَ، وَتَدعُوَ حالقَكَ فَيَحلقَكَ، فَخَرَجَ فَلَم يُكَلّم أَحَدًا منهُم حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ نَحَرَ بُدنَهُ، وَدَعا حالقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمّا رَأَوا ذَلكَ قامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعضُهُم يَحلقُ بَعضًا حَتَّى كادَ بَعضُهُم يَقتُلُ بَعضًا غَمًّا[1].

وإننا لنحتاج إلى الأخلاق الكريمة مع أنفسنا، وأهلنا، وأقاربنا، حتى مع أعدائنا، ومع المخالفين لنا، وفي كل شأن لنا، ولقد تأمَّلتُ في أركان الإسلام الخمسة فوجدت تعلُّقًا كبيرًا بينها وبين الأخلاق الحسنة؛ فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله من مقتضياتها الالتزام بأمر الله وأمر الرسول ﷺ، والاقتداء بالنبي ﷺ، وهذا يقتضي أن يكون المسلم على جانب كبير من الأخلاق الحسنة؛ فخلق نبينا ﷺ كان هو القرآن.

والصلاة قال الله تعالى في بيان بعض ثمارها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومن الجدير بالإشارة إليه هنا: أن من أعياه

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

أمـر معصيـة، ولم يجد سـبيلًا إلى الخـلاص منها؛ لتعلُّـق قلبه بها، فعليـه بأن يكثر مـن الصـلاة؛ فإنهـا تقـذف بغـضَ هـذه المعصيـة في قلبـه، فـلا يتعلق بـشيء منها. ومعرفـة كـمال الصـلاة يكـون بهـذا المعيـار، فمـن تكامل بعـدُه عن الفحشـاء والمنكـر تمَّـت صلاتـه وكَمُلـت، ومـن لـم تَنهَهُ صلاتـه عنها فـلا صلاة له.

وفي الزكاة قال ربنا: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: تطهرهم بها من ذنوبهم، وتزكّي بها أخلاقهم[١].

وتأمل في ارتباط الصوم بالأخلاق، فعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَن لَم يَدَع قَولَ الزُّور والعَمَلَ به، فَلَيسَ لله حاجَة في أَن يَدَعَ طَعامَهُ وَشَرابَهُ»[٢].

وفي الحج جاءت الآية: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة]. وأكد النبي ﷺ ما فيها بقوله: «مَن حَجَّ لله فَلَم يَرفُث، وَلَم يَفسُق، رَجَعَ كَيَوم وَلَدَتهُ أُمُّهُ»[٣].

ويؤكد هذه المعاني قوله ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارمَ الأخلاق»[٤].

وقـوله: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾، أي: سـيعلمون مـن الضال، وأيّهـم الذي فـتن، والباء في قـوله ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ زائـدة لتحقيق ظهور الحقيقـة إذ ذاك. وهـذه كقـول ربنا سـبحانه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦﴾ [القمر]. وسـتبصر في الدنيـا كذلـك هزيمـة من كذبك، وسـيبصرون ذلك وسـوف يعلمـون لمن تكون الدائـرة وكذلـك العاقبـة، وقد حـدث ذلك في بـدر وغيرها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/٤٥٤).
(٢) البخاري (١٩٠٣).
(٣) البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).
(٤) رواه البزار ١٥/٣٦٤ (٨٩٤٩)، وفي مسند أحمد ١٤/٥١٣ (٨٩٥٢)، بلفظ: «صالح الأخلاق»، وصححه الأرنؤوط ينظر تخريجه ثَمَّ، وهو في مستدرك الحاكم ٢/٦٧٠ (٤٢٢١)، قال الذهبي: على شرط مسلم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾، وفي هذا ما يرشد إلى أنَّ على الإنسان ألا يعبأ بما قيل عنه، فالعبرة بحكم الله لا بحكم غيره، فلو قال أكثر الناس: إنَّ فلانًا صالح ولم يكن كذلك عند الله فإن شهادتهم لا تعني شيئًا، ولو ذمَّ الناس صالحًا، فلا يساوي ذمهم شيئًا إذا كان عند ربه مَرضيًا. فليس مهمًّا ما يقوله الناس عنك، ولكن العبرة بحُكم الله عليك، وإن كان الصالحون من الناس شهداء الله في أرضه.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾، أي: لا تلتفت إليهم؛ فإنهم كانوا يدعون نبينا ﷺ إلى موافقتهم في دينهم وعبادة آلهتهم وعدم تسفيهها. ويُؤخذ من هذه عدم المجاملة على حساب الدين، وهذا مما يُجلِّي معنى عقيدة البراء من الشرك وأهله، وأن منها عدم موافقتهم في شعائر دينهم.

وهذه قاعدة مُطَّردة، إذا عُرف الإنسان بالكذب فإنه لا يطاع، ولا يلتفت إلى قوله، والإنسان قد يكذب حتى يكتب عند الله كذابًا، ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود ﷺ، عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلَى البِرّ، وَإنَّ البِرَّ يَهدي إلَى الجَنَّة، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدّيقًا. وَإنَّ الكَذبَ يَهدي إلَى الفُجُور، وَإنَّ الفُجُورَ يَهدي إلَى النَّار، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكذبُ حَتَّى يُكتَبَ عندَ الله كَذّابًا**»[1].

وما أكثر كذب دول الكفر، وفي بني جلدتنا من يُصدّقهم! وشر منهم في هذا الباب دولة أحفاد المجوس، ومع ذلك تجد فينا من يستأمنهم ويصدق وعودهم! والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾.

ومن تأمَّل في سورة يوسف وجد أن يعقوب ﷺ لما كذب عليه أبناؤه في المرة الأولى لم يُصدّقهم في المرة الثانية، قال ربنا: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]، هذا في

---

(١) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

المـرة الأولى، وفي المـرة الثانيـة لما أخذ يوسـف ﷺ أخاه لـم يكـذبوا لما أخـبروا أباهم بذلـك، ولكـن مـاذا قال لهـم أبوهـم؟ ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٨٣].

إن ممـا يجعـل الكآبـة تعتصر القلب أنـك تجد بعـض الصغار لا يصدقـون آباءهم وأمهاتهـم، بسـبب مـا جرَّبوه عليهم مـن الكذب، ولا يسـتقيم الظل والعـود أعوج!

وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾، هذا ما تهواه أنفسهم وأنفس المبطلين في كل زمان ومكان مع دعاة الحق، وقد عملوا وبذلوا كثيرًا ـ كما يبذلون اليوم ـ لتحقيقه، والمراد: أنهم أرادوا أن يعبد آلهتهم مدة، فيُوحَدون الله لذلك مدة[١]. فبيَّنَ لهم نبينا ﷺ أنه لا مداهنة في دين الله تعالى، ونزلت عليه سورة الكافرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

ومـن التنـازل الذي نُـهي نبينـا ﷺ عـن تقديمـه مـا جـاء في قول سـعد بن أبي وقاص ﷺ: « نَزَلَت: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، في سـتَّة: أَنـا وابنُ مَسـعُود منهُـم، وَكَانَ المُشركُـونَ قالُوا لَهُ: تُـدني هَؤُلاء؟!»[٢]، فـأرادوا منه أن يطردهـم، فنهـاه الله عـن ذلـك. وكم مـن داعية أو عالم يقـدم تنازلات ويـدعي أنها مـداراة مشروعـة! «والفـرق بين المـدارة والمداهنـة: أن المـداراة بـذل الدنيا لصلاح الدنيـا أو الديـن أو همـا معًـا، وهي مباحـة، وربما اسـتحبت، والمداهنة: تـرك الدين لصـلاح الدنيا»[٣].

فعـلى الإنسـان ألا يجاملَ في ديـن الله تعالى، وممـا أذكـره أني في عام ١٤١٢هـ كنت مـع شـيخنا العلامـة ابـن عثيمـين في بيـت أحـد المشـايخ بمكة، فسـألته سـؤالًا، فقـال لي في أثنـاء الجـواب: والعلمـاء ثلاثـة: عالـم دولـة، وعالـم أمـة، وعالـم ملـة.

---

(١) معالم التنزيل (٨/١٩٢).
(٢) مسلم (٢٤١٣).
(٣) فتح الباري (١٠/٤٥٤).

فعالم الدولة يفتي بما يريده السلطان، وعالم الأمة هو عالم الجمهور، يفتي بما يريده جمهوره منه، والثالث عالم الملة الذي يحفظ به دين الله، فلا يفتي إلا بما يوافق الحق[1]. وكم من عالم دنيا يبيع الفتاوى بأبخس الأثمان!

وربنا سبحانه قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾، والجزاء: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]، هذه لمن؟ لرسول الله ﷺ. وقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، فالحق لا مجاملة فيه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾«واختلفوا فيمن نزل هذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوليد بن المغيرة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الأخنس بن شريق، قاله عطاء، والسدي. والثالث: الأسود بن عبد يغوث، قاله مجاهد»[2]. وأيًّا ما كان فالمهم أن نتجنب الصفات التي ذمها الله في هذه الآيات.

وإغفال ذكر اسم المعني، مما يربي على عدم ذكر الأسماء في الخطاب الدعوي، إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك، قال ربنا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص]، وقد سمى زيدًا، وكنى عبد العزى بن عبدالمطلب أبا لهب! لكن الأصل: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟**»، وهذه تكررت في كثير من أحاديث نبينا[3] ﷺ.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾، ما يُشعر بأن كثرة الحلف تدل على أن الرجل يشك في نفسه، ويؤسفني أنني أجد بعض الطيبين يكثر من ذلك!

---

(١) ثم وجدت من كلامه في الممتع ما يوافق ذلك انظره (٤٦٤/٩) والتي بعدها.

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٣٢١/٤).

(٣) انظر على سبيل المثال البخاري مع الفتح (٤٥٦)، (٧٥٠)، (٦١٠١).

وقـد ذكـر بعـض العلمـاء أن جميـع ما أقسـم النـبي ﷺ على ما جـاء به مـن الحق في دواويـن السـنة نحـوٌ من ثمانين قَسَمًا فقـط[١]، وهذا على الحـق الذي لا امـتراء فيه! والقَسَـم جائـز في الأصـل لمقاصـد، لكـن لا ينبـغي الإكثار منـه. ومـن توجيهات ربنـا في كتابـه: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩]، فممـا قيل في معناهـا: لا تحلفوا[٢].

والمَهـين: الذليـل الحقـير، فهـو مع كـثرة حلفـه كاذب لا يصـدق! ومـا أكثر ما يكـون ذلـك في وسـط العامـة والدهمـاء، تجـد الواحـد منهـم يحلف بالطـلاق أن ثمـن سـلعة كـذا وهـو كاذب، فما ذنـب تلـك المسـكينة في بيته؟!

فـلا ينبـغي التهـاون في مسـألة الحلف، وأعـرف تاجـرًا ورعًا خاصمـه رجل في أربعـين مليـون ريـال، وهـذا مبلغ كبـير، وعلَّـق القاضي رجـوع الحق إليـه بيمينه، وهـو يعلـم أنه إذا لم يحلف فسـيكون سـببًا في أن ينال المحتال مـا ليس له، فحلف؛ لئـلا يعـين المحتال على بغيتـه، ورجع الحق إليـه، فجعل هذا المال كله في سـبيل الله؛ لئـلا يكون حلفه مـن أجل دنيـا! وهـذا ورع عظيم!

و﴿مَّهِينٍ﴾، من المهانة والدناءة والحقارة.

﴿هَمَّازٖ﴾، «قـالَ ابـنُ عَبّـاس وقَتـادَةُ: يَعني الاغتيـابَ»[٣]. ومـا هي الغيبة؟ عَن أَبي هُرَيـرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ، قـالَ: «**أَتَـدرُونَ مـا الغيبَـةُ؟**»، قالُـوا: اللهُ وَرَسُـولُهُ أَعلَـمُ، قـالَ: «**ذكـرُكَ أَخـاكَ بما يَكـرَهُ**». قيلَ: أَفَرَأَيـتَ إن كانَ في أَخي مـا أَقولُ؟ قالَ: «**إن كانَ فيـه مـا تَقُـولُ، فَقَـد اغتَبتَـهُ، وَإن لَم يَكُن فيـه فَقَـد بَهَتَّهُ**»[٤].

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾، بالنميمة، وهي: نقل الكلام على جهة الإفساد.

---

(١) ينظر كلام ابن القيم في إعلام الموقعين (١٦٥/٤)، وهو في صدد جواز الحلف على ثبوت الأمر عند المفتي.
(٢) معالم التزيل (٩٣/٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١٩١/٨).
(٤) مسلم (٢٥٨٩).

ويفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة، لماذا؟ لأن الساحر يكون أثر سحره غالبًا في أفراد، أما أثر النميمة فقد يعم ضررها أمة!

وقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ﴾، يأتي مثال يبينها في قصة أصحاب الجنة.

والمناع لا ينفق في سبيل الله، ولا يعطي الناس، قال ربنا في سورة الماعون: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾، وقال في ذكر صفات أهل سقر: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤﴾ [المدثر].

ومن في طبعه المنع تراه إذا قام من يسأل صد الناس عن الإنفاق عليه، ومن أدراك أنه كاذب؟ فإذا غلب على ظنك أن السائل محتاج فلا تمنع عنه خيرك؛ فأنت أحوج إلى هذه الصدقة منه. ولو بان بعد ذلك أنه كاذب فقد ثبت أجرك، ففي حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**قالَ رَجُل: لَأَتَصَدَّقَنَّ بصَدَقَة، فَخَرَجَ بصَدَقَته، فَوَضَعَها في يَد سارق، فَأَصبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سارق فَقالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بصَدَقَة، فَخَرَجَ بصَدَقَته فَوَضَعَها في يَدَي زانيَة، فَأَصبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيلَةَ عَلَى زانيَة، فَقالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، عَلَى زانيَة؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بصَدَقَة، فَخَرَجَ بصَدَقَته، فَوَضَعَها في يَدَي غَنيّ، فَأَصبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنيّ، فَقالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، عَلَى سارق وَعَلَى زانيَة وَعَلَى غَنيّ، فَأُتيَ فَقيلَ لَهُ: أَمّا صَدَقَتُكَ عَلَى سارق فَلَعَلَّهُ أَن يَستَعفَّ عَن سَرقَته، وَأَمّا الزّانيَةُ فَلَعَلَّها أَن تَستَعفَّ عَن زناها، وَأَمّا الغَنيُّ فَلَعَلَّهُ يَعتَبرُ فَيُنفقُ ممّا أَعطاهُ الله**»[1].

---

(١) البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).

وقـوله: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، الاعتـداء بالفعـل، فيرتكـب الحرام بجوارحـه، وأثيم في لسـانه، فـإذا قال كـذب، وإذا وعد أخلـف، وإذا ذكـر أخاه اغتابـه وعابه[١].

و﴿عُتُلٍّ﴾، «هُـوَ: المُصحَّـح الخَلـق، الشَّـديدُ القَـويُّ في المَـأكَل والمَـشرَب والمَنكَـح، وَغَـير ذَلـكَ»[٢]، وَأَمَّـا ﴿زَنِيمٍ﴾ فهـو الدَّعيُّ الذي لا يُعـرف أبـوه.

ثـم بـين ﷻ سـبب ضـلاله في الدنيا، وهـو اغـتراره بالنعمـة وكفرانه لهـا، فقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾، وهكـذا البنـون والأمـوال كثـيرًا مـا تُضـلُّ وتُطـغي، قـال ابـن تيميـة: «الصـلاح في الفقراء أكـثر منـه في الأغنياء. كمـا أنه إذا كان في الأغنيـاء فهو أكمل منـه في الفقراء، فهذا في هـؤلاء أكـثر وفي هـؤلاء أكـثر، لأن فتنـة الغـنى أعظـم من فتنـة الفقر؛ فالسـالم منهـا أقـل. ومـن سـلم منهـا كان أفضل ممن سـلم مـن فتنـة الفقـر فقـط»[٣]، فهذا أفـاده الغـنى طغيانـًا، فتعالى عـن اتباع النـبي ﷺ وقـال: الأمر كله حديـث خرافة، وأسـاطير مـا أنـزل بها من سـلطان.

فجـازاه الله بذلـك التعـالي إهانـة فقـال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾؛ أي:الأنـف، وكل إنسـان حريـص على إكـرام أنفـه ووجهـه؛ لأنـه أبـرز مـا فيـه، والمـراد: أن الله تعـالى سـيُبيّن أمـرَه بيانـًا واضحـًا، فـلا يخـفى كمـا لا تخـفى السّـمة الـتي تكـون على الأنـف. وقيـل: وقـع ذلـك يـوم بـدر، فخُطـم فيهـا بالسـيف. وقيـل: نُسـوّد وجـوه أهـل النـار، وعـبّر بالأنـف عـن الوجـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٣٥٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/١٩٣).
(٣) الفتاوى (١١/١٣١).

الآيات (١٧ ـ ٣٣)

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

علاقة هذه القصة بما سبق من آيات لا تخفى، فقد ذم الله قبل ذكرها من كان مناعًا للخير، وهذا نموذج لما ذكر الله، وبيان لعاقبته.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، اختبرنا هؤلاء الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كما اختبرنا أصحاب الجنة، ومن هم؟ وأين هي هذه الجنة؟ هذا مما لا يعرف، نسكت عما سكت الله عنه ورسوله، ولو كان في بيان ذلك خير لبُيّن لنا.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾، ليَجُذُّنَّ ثمرها مصبحين قبل أن يحضر المساكين.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾، والاستثناء: قول: إن شاء الله، وقد ثبت عَن ابن عُمَر ﵄، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**مَن حَلَفَ عَلَى يمين، فَقالَ: إن شاءَ الله فَقَد استثنَى،**

فَلاَ حنثَ عَلَيه»[1]. وفي الصحيحين، عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، عَن النَّبي ﷺ، قالَ: «قالَ سُليمانُ بنُ داوُدَ: لأَطُوفَنَّ اللَّيلَةَ عَلَى تسعينَ امرَأَةً كُلُّها تَأتي بفارس يُقاتلُ في سَبيل الله، فَقالَ لَهُ صاحبُهُ: قُل: إن شاءَ اللهُ، فَلَم يَقُل: إن شاءَ اللهُ، فَطافَ عَلَيهنَّ جَميعًا، فَلَم تَحمل منهُنَّ إلّا امرَأَة واحدَة، فَجاءَت بشقّ رَجُل، وايمُ الَّذي نَفسُ مُحَمَّد بيَده لَو قالَ: إن شاءَ اللهُ لَجاهَدُوا في سَبيل الله فُرسانًا أَجمَعُونَ»[2].

وفي الاستثناء في اليمين ثلاث فوائد:

- إعمال الآية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣﴾ [الكهف].
- الإعانة على ما حلفت عليه.
- لا حنث على المستثني.

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩﴾، ولا يُعلم ما هذا الطائف، ولكنه شيء من جنود الله أهلك به حرثهم، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومما رأيته بعيني: أني مررت بمزرعتين بعد ريح ممطرة، وهما متجاورتان تمامًا، فوجدت إحداهما قد هلكت ولم يبق فيها شيء، والثانية فلم تُمسَّ بسوء، ولعل صاحبها حفظ حقوق الله فحفظ الله تعالى له ثمره.

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾، صرم الشيء قطعه، والمراد: صارت أشجارها هشيمًا يبسًا.

﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١﴾، ليذهبوا لجذاذ نخلهم.

﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢﴾ أي: إن كنتم تُريدُونَ الصرامَ، وقطع الثمار.

---

(١) الترمذي (١٥٣١)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٥٧١).
(٢) البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤).

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝٢٣﴾، يتناجون بينهم، ولم يخف عن الله قولهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤﴾، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]. تقول أمنا عائشة ﷺ: «الحَمدُ لله الَّذي وَسعَ سَمعُهُ الأَصواتَ، لَقَد جاءَت المُجادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنا في ناحيَة البَيت، تَشكُو زَوجَها، وَما أَسمَعُ ما تَقُولُ، فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»[1].

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝٢٥﴾، أي: على غيظ من المساكين، وهم قادرون عليها في ظنهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۝٢٦﴾، ضللنا طريقنا إليها، وما هذه بجنتنا.

وذلك من هول ما رأوا، ثم استجمعوا عقولهم واستدركوا فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾، لم نضل الطريق، ولكن لا حظَّ لنا فيها.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾؛ أي: خيرهم. كما قال ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: خيارًا عدلًا.

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾، قال لهم: استثنوا ولا تمنعوا لتكونوا من الشاكرين[2]، لكنهم ما أطاعوه.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٩﴾، رجعوا إلى قوله، واعترفوا بجرمهم، ولكن بعد حلول العقوبة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝٣٠﴾، يلوم بعضهم بعضًا في تبييت هذه النية السيئة. وكل إنسان إذا نزل العذاب به علم أنه كان في ضلال، وليست العبرة بذلك، وإنما العبرة بالعمل بطاعة الله، فماذا يجدي الندم بعد فوات الأوان؟! فالعاقل من تجنب ما يسخط ربه لئلا يصيبه بعذابه.

(١) ابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني في الظلال (٦٢٥).
(٢) انظر: معالم التنزيل (٨/١٩٦).

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾، معتدين، متجاوزين للحد.

كما قال ربنا: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]، وهؤلاء استغنوا بجنتهم وحرموا المساكين منها، فماذا كانت النتيجة؟

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، قيل: أرادوا من الله خيرًا منها في الدنيا، وقيل: أرادوا ثواب الآخرة.

وهؤلاء كان أبوهم صالحًا، وهلك مالهم، وقد قال ربنا في شأن جدار الغلامين: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]، فحاق بهؤلاء ما لم يذكر أنه أصاب صاحبي الجدار؛ وذلك لمعصيتهم الله تعالى.

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وذلك لأن حبس المال عن المساكين منع لهم من حقهم فيه، وإضرار بهم كبير، وبذل المال لهم سبب لخيري الدنيا والآخرة، ومما يبين ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]، أي: يوف إليكم أجره يوم القيامة، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩].

وثبت عن أبي هريرة ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**قالَ الله ﷻ: أَنفق أُنفق عَلَيكَ**»[١].

(١) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

الآيات (٣٤ ـ ٥٢)

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾، ويا بُعدَ ما بين هؤلاء وبين من شمل جنتهم العذاب!

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهذا الإنكار تكرر في مواضع من القرآن، منها:

قال ربنا: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر]، وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [غافر]، وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر]، وقال: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد]، وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة]، وقال: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك].

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، فجعل المسلمين كالمجرمين جَور في القضية.

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ هل عندكم كتاب فيه برهان من الله ﷻ، بأن ما تشتهونه هو لكم!؟ وهذا كذلك سؤال واقع على جهة الإنكار.

وكذلك قوله: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾، هل معكم عهود ومواثيق منا، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: إنَّهُ سيحصل ما تريدون؟

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾، قل لهم: من المتكفل بهذا؟

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾، أي: مما يعبدون من دون الله تعالى، يكفلون لهم السلامة مع الجرم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

وبعد الإنكار انتقل إلى بيان الحال يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾، ثبت في الصحيح، عَن أَبي سَعيد ﷺ، قالَ: سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ يَقولُ: «**يَكشفُ رَبُّنا عَن ساقه، فَيَسجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤمن وَمُؤمنَة، فَيَبقَى كُلُّ مَن كانَ يَسجُدُ في الدُّنيا رياءً وَسُمعَةً، فَيَذهَبُ ليَسجُد، فَيَعُودُ ظَهرُهُ طَبَقًا واحدًا**»[1].

---

(١) البخاري (٤٩١٩).

ويحسن التنبيه هنا أنه لا أسلم، ولا أعلم، ولا أحكم، من أن نصف الله تعالى بما وصف به نفسه؛ بلا تحريف، ولا تأويل، ولا تمثيل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تفويض للمعنى.

● **وهل في الآخرة تكليف؟**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «والتكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار، وأما عَرَصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ، فَيُقالُ لأَحَدهم: مَن رَبُّك؟ وَما دينُك؟ وَمَن نبيُّك؟ وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢﴾ الآيَةَ»(١).

ثم وصف الله تعالى حالهم البئيس إذ ذاك فقال: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾، وهذا مما يُستدل به على أن الجزاء من جنس العمل، فقد دُعي هؤلاء إلى السجود في الدنيا فلم يستجيبوا لأمر الله تَكبُّرًا؛ فحُرموا من السجود في عرصات القيامة، فالمحروم من حرم نفسه من السجود في الدنيا، فحِيلَ بينه وبين السجود في الآخرة.

ثم رجع السياق إلى الوعيد فقال تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾، «يَعني: القُرآنَ. وَهَذا تَهديد شَديد، أَي: دَعني وَإِيَّاهُ منّي وَمنهُ، أَنا أَعلَمُ به كَيفَ أَستدرجُهُ، وَأُمُدُّهُ في غَيّه وَأُنظِرُ ثُمَّ آخُذُهُ أَخذ عَزيز مُقتَدر؛ وَلهَذا قالَ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: وَهُم لا يَشعُرُونَ، بَل يَعتَقدُونَ أَنَّ ذَلكَ منَ الله كَرامَة، وَهُوَ في نَفس الأَمر إهانَة، كَما قالَ: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون]، وَقالَ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام]»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/٣٠٣ ـ ٣٠٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٠٠).

ولـو قيـل لأحدنـا: إن فلانًـا يتوعَّدُك، وهـو يعلم قدرتـه على إيقاع مـا توعد به لمـلأ الخوف قلبـه، فكيف بـالله تعـالى الذي لا يُعجزه شيء؟

ودلـت الآيـات على أن الله تعـالى إذا أنعـم على عبد وهـو يبارزه بالمعـاصي فإنما هـو اسـتدراج. ثبـت عـن عُقبَةَ بـن عامر ﷺ، عَـن النَّـبيّ ﷺ قـالَ: «**إذا رَأَيـتَ اللَّهَ يُعطي العَبـدَ مـنَ الدُّنيا عَلَى مَعاصيـه ما يُحـبُّ، فَإنَّما هُوَ اسـتدراج**»، ثُـمَّ تَلا رَسُـولُ الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام][1].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: أُمهلُهـم وأُنظرهـم ليغـتروا فيصيبهـم أعظـم الـضرر جـراء ما جنـوا على أنفسـهم، وهذا كيـد عظيـم، أن يترك الكافـر حتى يعلق في شـبكة لا فـكاك له منهـا، ويقـع في مـا لا مخـرج له منـه، وهـذه الجملـة تتضمـن توعـدًا رادعًا للعقـلاء مـن عظيـم قادر!

وبعـد الوعيـد يعود السـياق إلى الإنـكار، في تـوال يُحرك القلـوب، فيقول تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾، والمعـنى: لا حجـة لهـم ولا سـبب يتعلقـون بذيلـه في التقاعـس عـن الإيمـان! هل سـألتهم جُعـلًا على مـا جئتَهم بـه ودعوتَهم إليـه مـن الديـن، فأثقلهـم ذلك المغـرم الذي تسـألهم، فمنعهـم ذلك من الإسـلام؟

ولـم يسـأل قـط نـبيّ قومـه أجـرًا؛ لئلا يكـون لهم عـذر في عـدم الاسـتجابة له، قـال ربنـا: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام]، وقـال: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان]، وقـال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود]،

---

(١) أحمد (١٧٣١١)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

وقال صالح ﷺ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال ربنا تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء].

والأجر كلُّ منفعة دنيوية.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾، والمراد: أعندهم علم الغيب، فهم يكتبون ما يحكمون به لأنفسهم من أنهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به، وأنهم ناجون من عذابه بدون أن يؤمنوا بك؟!

وفي ختام السورة يُرشد سبحانه إلى الواجب تجاه أولئك المُكذّبين، الذين قد تدعو حالهم المعاندة إلى تركهم والإياس منهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾، مهموم وهو في بطن الحوت.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، حذره الله ﷺ كثيرًا من سبيل الكافرين، وفي هذه جاء التحذير عن أن يكون كنبي الله يونس ﷺ في قضية واحدة، في عدم صبره على قومه، أما في غير هذه فإنه مأمور باتباع هديه، قال ربنا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام]. فنبي الله يونس ﷺ من جملة من أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم. قال نبينا ﷺ: **«لا تُفَضِّلُوا بَينَ أَنبياء الله، فَإِنَّهُ يُنفَخُ في الصُّور فَيَصعَقُ مَن في السَّماوات وَمَن في الأَرض إلّا مَن شاءَ اللّهُ، قالَ: ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَن بُعِثَ، أَو في أَوَّل مَن بُعث، فَإذا مُوسَى ﷺ آخذ بالعَرش، فَلا أَدري أَحُوسِبَ بِصَعقَته يَومَ الطُّور، أَو بُعِثَ قَبلي، وَلا أَقُولُ: إنَّ أَحَدًا أَفضَلُ من يُونُسَ بن مَتَّى ﷺ»**[1].

﴿لَوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي تداركه نعمة من ربه بأن وفقه للتوبة والاستغفار، ثم أيضًا قَبل منه التوبة، فما أرحم الله! كم من إنسان يريد التوبة فلا يتمكن منها! فإن يسَّرها الله لك فاعلم أنها نعمة، وإن تقبَّلها الله منك فهذه نعمة أخرى.

ونعمة أخرى أنعمها الله تعالى على يونس وهي أنه بقي حيًا في بطن الحوت، فلم يختنق، ولم تؤثر فيه عُصاراته الهاضمة.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾، ولكن تداركته نعمة ربّه فلم يكن مذمومًا.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي اصطفاه واختاره، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾، فما أنت فيه من الخير والهدى لا ينبغي أن تعجب به، فإنما هو نعمة من الله تعالى.

والكلمة التي نجا بها: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء]، فما أعظم أثر التوحيد في النجاة من الكروب. ومن تأمّل في أدعية الكرب لمس ذلك؛ فقد روى مسلم[2]، عَن ابن عَبّاس ﷺ، أَنَّ نَبيَّ الله ﷺ كانَ يَقُولُ عندَ الكَرب: **«لا إلَهَ إلّا الله العَظيمُ الحَليمُ، لا إلَهَ إلا الله رَبُّ العَرش العَظيم،**

---

(١) البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٢) (٢٧٣٠).

لا إلَهَ إلّا الله رَبُّ السَّماوات وَرَبُّ الأَرض وَرَبُّ العَرش الكَريم». وعَن أَسماءَ بنت عُمَيس ﵂، قالَت: قالَ لي رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلا أُعَلِّمُك كَلمات تَقُولينَهُنَّ عندَ الكَرب ـ أَو في الكَرب ـ ؟ الله الله رَبّي لا أُشركُ به شَيئًا**»[1]. وعن أَبي بَكرَةَ ﵁، أن رَسُولُ الله ﷺ قال: «**دَعَواتُ المَكرُوب: اللَّهُمَّ رَحمَتَكَ أَرجُو، فَلا تَكلني إلَى نَفسي طَرفَةَ عَين، وَأَصلح لي شَأني كُلَّهُ، لا إلَهَ إلّا أَنتَ**»[2].

وهذه الكلمة المباركة التي دعا بها يونس ﵇ قال فيها نبينا ﷺ: «**دَعوَةُ ذي النُّون إذ دَعا وَهُوَ في بَطن الحُوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء]، فَإنَّهُ لَم يَدعُ بها رَجُل مُسلم في شَيء قَطُّ إلّا استَجابَ الله لَهُ**»[3].

ثم قال تعالى مُعرّفًا ببعض مصاعب الدعوة التي ينبغي الصبر عليها: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، قال ابن كثير ﵀: «قالَ ابنُ عَبّاس، وَمُجاهد، وَغَيرُهُما: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ لَيُنفذُونَكَ بأَبصارهم، أَي: لَيُعينُونَكَ بأبصارهم، بمَعنَى: يَحسُدُونَكَ لبُغضهم إيّاكَ لَولا وقايَةُ الله لَكَ، وَحمايَتُهُ إيّاكَ منهُم. وَفي هَذه الآيَة دَليل عَلَى أَنَّ العَينَ إصابَتُها وَتَأثيرُها حَق، بأَمر الله، ﷻ، كَما وَرَدَت بذَلكَ الأَحاديثُ المَرويَّةُ من طُرُق مُتَعَدّدَة كَثيرَة»[4]. والعين حقّ، وليس معنى ذلك أن يعزو الإنسان كل تَعثُّر في حياته إليها! فالعين حق، وفشلُ مَن لم يأخذ بالأسباب حقّ، والتحصُّن والأذكار التي تقي منها حقّ.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾، قيل عن نبينا ﷺ: مجنون، وشاعر، وكاهن، وكذاب، وجاء قول ربنا: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] تسليةً له.

---

(١) أبو داود (٢٩١٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة (٢٧٥٥).
(٢) أبو داود (٥٠٩٠) وأحمد (٢٧٨٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨).
(٣) الترمذي (٣٥٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣).
(٤) تفسير ابن كثير (٨/٢٠١).

وإذا كانوا صادقين في أنفسهم في دعواهم، فلماذا يريدون أن يزلقوه بأبصارهم؟ أمجنون يُحسَد؟!

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، ليس لصحابة محمد ﷺ فقط، بل للأمة كلها، وهذا يدل على شيئين: أنه يبقى محفوظًا ليتحقَّق أنه ذكرى لمن يأتي في آخر الزمان. وأن تبقى السنة محفوظة؛ لأنها تُبيّنه، وتُجلّي معانيَه، ويلزم من حفظه أن تبقى محفوظة.

ولا يقال: كيف وقد وضع الكذابون كثيرًا من الأحاديث؟ فالجواب: كما وضع الأفّاكون كثيرًا من التفاسير الباطلة التي تهدف إلى هدم العقيدة، فقيَّض لها من يبين ضلالها، فكذلك قيَّض للسنة من يُبيّن ضعيفها من صحيحها.

وهذه الآية تقذف بسؤال بين أيدينا: هل أوصلنا هذا القرآن إلى العالمين؟ فالواجب: علينا الاجتهاد لتحقيق ذلك.

وهذه العالمية من الخصائص النبوية، فقد ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عَبد الله ﷺ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أُعطيتُ خَمسًا لَم يُعطَهُنَّ أَحَد قَبلي: نُصرتُ بالرُّعب مَسيرَةَ شَهر، وَجُعلَت لي الأَرضُ مَسجدًا وَطَهورًا، فَأَيُّما رَجُل من أُمَّتي أَدرَكَتهُ الصَّلاَةُ فَليُصَلّ، وَأُحلَّت لي المَغانمُ وَلَم تَحلَّ لأَحَد قَبلي، وَأُعطيتُ الشَّفاعَةَ، وَكانَ النَّبيُّ يُبعَثُ إلَى قَومه خاصَّةً وَبُعثتُ إلَى النّاس عامَّةً**»[1]، والله المستعان على الدعوة والبلاغ، وعليه التكلان.

---

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).



بين يدي سورة الحاقة

وهي مكية بالاتفاق[١].

أسماؤها:

سميت بسورة «﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾»، و«السّلسلة»، و«الواعية».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وست وَخَمسُونَ كلمة، وحروفها ألف وَأَربَعَة وَثَمانُونَ حرفًا، وَهِي إحدَى وَخَمسُونَ آيَة في البَصريّ والشامي، واثنَتان في عدد الباقينَ، اختلافها آيتان؛ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾ الأولى، عدها الكُوفي وَلم يعدها الباقُونَ، ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، عدها المدنيان والمكي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

- تهويل يوم القيامة، وتهديد المكذبين بوقوعه.
- تذكيرهم بما حلَّ بالأمم التي كذَّبت به من العذاب.
- تهديد المكذبين لرسل الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذَّبت.

---

(١) التحرير والتنوير (١١١/٢٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٣).

- وصف أهوال الآخرة.
- تفاوت الناس يومئذ فيه.
- تنزيه الله تعالى عن أن يُقرَّ من يتقوَّل عليه.
- تنزيه الرسول ﷺ وإثبات صدقه[١].

مقصدها:

تثبيت الرسول ﷺ، والدلالة على الإيمان به وبما أنزل عليه، وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن.

(١) يراجع: التحرير والتنوير (٢٩/١١١).

سورة الحاقة: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٨)




﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، هذا المطلع العظيم يسترعي الأسماع، ويشدُّ القلوب، ويستفاد من هذا أن الإنسان إذا أراد أن يتكلَّم بموضوع مُهمّ عليه أن يقدم بمقدمة تحمل الحاضرين على أن يتنبهوا لكلامه.

وسُمّيت القيامة بالحاقة؛ لأن الوعد والوعيد يتحقَّق فيها[1]. ولأن وقوعها متحقَّق لا مريةَ فيه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾، عاد قوم من العرب كانوا بالأحقاف جنوب الجزيرة، وديار ثمود هي مدائن صالح المعروفة الآن، ومما يؤسف له أن بعض الناس يزورها للتنزُّه! وقد ثبت عن ابن عمر ﭭ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا مَرَّ بالحجر قَالَ: «لا تَدخُلُوا مَساكنَ الَّذينَ ظَلَمُوا أنفسَهُم إلّا أَن تَكُونُوا باكينَ؛ أَن

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٢٠٨).

يُصيبَكُم ما أصابَهُم». ثُمَّ تَقَنَّعَ بردائه وَهُوَ عَلَى الرَّحل[١].

قال النووي ﷺ: «فيه: الحثّ عَلَى المُراقَبَة عند المُرُور بديار الظَّالمينَ، وَمَواضع العَذاب...، فَيَنبَغي للمارّ في مثل هَذه المَواضع المُراقَبَة، والخَوف، والبُكاء، والاعتبار بهم، وَبمَصارعهم، وَأَن يَستَعيذ بِاَلله من ذَلك»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وهذا يتناول مساكن ثمود، وغيرهم، ممن هو كصفتهم، وإن كان السبب ورد فيهم»[٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾، قيل: بسبب طغيانهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١﴾ [الشمس]، وقيل: الصيحة[٤]. وفي هذا تنبيه على أن الطغيان سبب للانتقام.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، أي: ريح قوية، باردة، شديدة الهبوب. والريح من جند الله التي سُخّرت لنصرة أنبيائه، فسُخّرت لسليمان ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وسُخّرت لنبينا ﷺ، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، وهذا يدلُّ على أن العذاب بدأ بالنهار وانتهى به.

وإذا ذُكر الليل مع اليوم في سياق واحد انصرف معنى اليوم إلى النهار. والحسوم: الدائمة التي لا تنقطع.

---

(١) البخاري (٤٢٣) ومسلم (٢٩٨٠).
(٢) شرح مسلم (١١١/١٨).
(٣) فتح الباري (٣٨٠/٦).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢٠٨/٨).

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾، وفي موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر]. فقد كانت الريح تحملهم، وتُسقطهم على رؤوسهم، فتنفصل عن أجسادهم، فيكون الواحد ملقىً كجذع النخل.

خاوية: لا جوف لها، فصار هؤلاء الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] كجذوع نخل لا جوف لها، ومثل هذا النخل لا يستفاد منه؛ لذهاب قوته بذهاب جوفه.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؟ هل بقي أحد من هؤلاء؟ لم يبقَ سوى ذكرهم بالسوء.

الآيات (٩ ـ ١٢)

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾، ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾، أي: من سبقه، وهذه قراءة الجمهور، وقُرئ هذا الحرف: ﴿وَمَن قِبَلِهِۦ﴾، أي من عنده من أتباعه.

والمؤتفكات: قوم لوط، و«ائتفكوا: أهلكوا»(١).

وليس يخفى على المتدبر للقرآن تنوُّع العقوبات التي استأصل الله بها شأفة من كذب بالرسل من الأمم السابقة، ففرعون وقومه أُهلكوا بالغرق، ومما يُبيّن مناسبة هذه العقوبة لهم أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأجراها الله من فوقه.

وقوم لوط انتكسوا في فطرتهم، فناسب أن يُعذّبهم الله تعالى بقلب قُراهم، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾، الرابية: ما ارتفع من الأرض، والأخذة الرابية: الشديدة.

---

(١) تفسير البغوي (٨/٢٠٨).

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾، والسؤال: لماذا توجَّه الخطاب إلى هذه الأمة؟ والجواب هو لأن كل من في الأرض ممن جاء بعد إغراق الله تعالى للظالمين هم نَسلُ من كان في السفينة، على خلاف بين العلماء: هل الذين مع نوح ﷺ هم أبناؤه فقط؟ فيكون العالم كله راجعًا إلى نوح كما يرجع إلى آدم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ؟ أو معه آخرون من المؤمنين به، وهذا هو الراجح. فالنعمة التي حلَّت بالآباء مما يُمتَنُّ بها على الأولاد؛ قال ربنا ليوسف ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، ولماذا ذكرت الأذن؟ لأنها سبيل الوعي والعقل عن الله تعالى.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، «قال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة»(١). لأنه قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي السفينة. وقال بعض العلماء: المقصود: ذكرها، ونحن لم نرَ السفينة، لكن ذكرها باق(٢). وهذا أصح، بدليل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

وهناك بعض المتاحف يدَّعون أن فيها سفينة نوح ﷺ! وهذا مما لا دليلَ عليه، وإنما المراد من ذلك أكل أموال الناس بالباطل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢١٠).
(٢) المصدر السابق.

الآيات ١٣ ـ ١٨

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾

قول ربنا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣)﴾، هذه النفخة الثانية، لأن الله تعالى ذكر بعدها أهوال القيامة. والصحيح أنهما نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث، قال ربنا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر]. وثبت عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«لا تُفَضِّلُوا بَينَ أنبياء الله، فإنَّهُ يُنفَخُ في الصُّور فَيصعَقُ مَن في السَّماوات وَمَن في الأَرض إلّا مَن شاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَن بُعثَ، فإذا مُوسَى** ﷺ **آخذ بالعَرش، فلا أَدري أَحُوسبَ بصَعقَته يومَ الطُّور، أَو بُعثَ قَبلي»**[1]. ومن الأدلة على ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون»**. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: **«أبيتُ»**[2]. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: **«أبيتُ»**. قالوا: أربعون سنة؟ قال: **«أبيتُ. ثم يُنزل الله**

---

(١) البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١١/٣٧٠):«بالموحدة ومعناه امتنعت من تبيينه لأني لا أعلمه فلا أخوض فيه بالرأي. وقال القرطبي في التذكرة يحتمل قوله امتنعت أن يكون عنده علم منه ولكنه لم يفسره لأنه لم تدع الحاجة إلى بيانه ويحتمل أن يريد امتنعت أن أسأل عن تفسيره فعلى الثاني لا يكون عنده علم منه».

من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجبُ الذَّنب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة»[١].

وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾؛ أي سُوِّيتا ببعضهما فأصبح وهد الأرض وحدبها سواء، وفي ذلك إشعار بهول اليوم وعظمه.

ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾، أي تحقق وقوعُها، والواقعة من أسماء يوم القيامة لكونها كائنة واقعة لا محالة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾، هذه السماء التي ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات]، تكون في يوم القيامة واهية ضعيفة.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾، على أطرافها. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ قيل: ثمانية ملائكة أقوياء، وقيل: ثمانية صفوف من صفوف الملائكة، والله أعلم[٢]، والأول أظهر، وأليق بما ورد.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾، على الجميع، فهل يرضى أحدنا أن يكون ما في قلبه الآن مكشوفا للجميع؟ إن قال: لا، فليتأهب اليوم قبل يوم القيامة حيث يصير السر علانية. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق]، أي: تُختبَر، وتُكشَف. والنجاة من هول هذا الموقف بأن لا يُكنَّ المرء في قلبه إلا الخير.

---

(١) البخاري (٤٦٥١) ومسلم (٢٩٥٥).
(٢) زاد المسير (٣٣١/٤).

الآيات (١٩ ـ ٢٤)

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾



﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾، وهـذا يذكّـر بمـا يكـون بعـد نجـاح الـولد في الدنيـا، يـأتي مُـسرعًا إلى والديـه، يريد أن تتـم فرحتـه برؤيتهما لشـهادته. أمـا إذا كان راسـبًا فإنـه لا يحـب أن يرى ذلـك أحد.

و﴿هَآؤُمُ﴾: اسم فعل أمر، ومعناه: خُذ[1].

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، والظـن هنـا اليقـين، قال قتـادة رحمه الله: «ما كان من ظـنّ الآخرة فهـو علم»[2].

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾، ولم يقل ربنا عز اسمه: مرضية، فهي ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، تحمل أصحابها على أن يكونوا من الراضين بها؛ لكمال نعيمها.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ «أي: رَفيعَة قُصُورُها، حسان حُورُها، نَعيمَة دُورُها، دائم حُبُورُها»[3]، فهي عالية حسًا ومعنى، فهؤلاء لما علت همتهم في الدنيا، وترفّعت نفوسهم عن مقارفة ما يُسخط الله عليهم، جوزوا بذلك، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) الكشاف (٦٠٢/٤).
(٢) تفسير الطبري (٥٨٥/٢٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٢١٤/٨).

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٢٣﴾، يأتيه ما يشتهيه من الثمار وغيرها، وهو مُتكئ على أريكته، لا يحتاج إلى القيام لتناول ما يريده، بل يُدني له ربه ذلك؛ إكرامًا له.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٤﴾، وهذا لا يعارض حديث الصحيحين: «**اعمَلُوا، وَسَدّدوا، وقاربُوا، واعلَمُوا أنَّ أَحَدًا منكُم لَن يدخل الجنةَ بعمله**». قالُوا: وَلا أَنتَ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**وَلا أَنا، إلّا أَن يَتَغَمَّدني اللهُ برَحمَة منهُ وَفَضل**»[1]؛ لأن الباء في ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ باء السبب، والباء في: «**لَن يدخل الجنةَ بعمله**»، باء العوَض. فالعمل سبب فقط، وليس عوضًا.

و﴿الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: أيام الدنيا التي مضت، وها نحن نعيشها، فما زالت الفرصة قائمة، فالعاقل من قدّم لنفسه قبل أن يحول الموتُ بينه وبين الأعمال الصالحة.

(١) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الآيات (٢٥ ـ ٣٧)

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

أتبع ربُنا ذكرَ حال من أحسن العمل بذكر من خلت أيامه وقد فرَّط فيها وأثبت في صحائف الأعمال ما لا يحب، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾، لما يرى فيه من الكفر، والزندقة، والانحلال، وتضييع حدود الله تعالى، فيتمنى أنه لم يُعطَ كتاب الخزي والعار، ولم يعلم جزاءه.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾، والقاضية: موت لا حياةَ بعده[1]، فيتمنى أن لو كان موته كذلك. ولا ريب أن الموت خير مما سيلقاه، ولذلك بيّن ربنا أنهم لن يموتوا بعد دخول النار، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/٢١٢).

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ ﴾، أي: لم ينفعني، وماله الذي جمعه في الدنيا لم ينتفع به، بل يكون وبالًا عليه. قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة].

فالمال قد يكون سببًا لرضاء الله عن العبد، إذا عمل فيه بطاعة الله، وقد يكون سببًا للشقاء، إذا كان أداة لمعصية الله تعالى. فالمُتصدّق بالمال في ظل صدقته، والتاجر الصدوق الذي يكسب المال بحلال مع النبيين والصديقين، وإخراج زكاة المال من أسباب الأمن يوم الفزع الأكبر، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

ثبت عن أَنَس بن مالك ﷺ، عَن النَّبِيّ ﷺ قال: «**يُقالُ للرَّجُل من أَهل النّار يومَ القيامَة: أَرَأَيتَ لَو كانَ لَكَ ما عَلَى الأَرض من شَيء أَكُنتَ مُفتَديًا به؟ فَيَقولُ: نَعَم. فَيَقولُ: قَد أَردتُ منكَ أَهوَنَ من ذَلكَ، قَد أَخَذتُ عَلَيكَ في ظَهر آدَمَ أَلّا تُشركَ بي شَيئًا، فَأَبَيتَ إلّا أَن تُشركَ بي**»(١).

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ ﴾، أي: ليس لي جاه يدفع عني العذاب(٢). وقد جمعت هذه الآية أعظم أسباب الطغيان: السلطة، والمال.

ثم بيّن ما يلقاه فقال: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢ ﴾، أي فاجعلوا الأغلال عليه، فيكون في النار مغلولًا، فإنه أبى في الدنيا أن يتقيد بقيود الله والشرع، فجوزي بهذه الأغلال في الآخرة.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أن من رفض قيود الشرع فقد وَضع غُلَّ الشيطان في رقبته، فناسب أن يُعذَّب بالأغلال في الآخرة، جزاء وفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا، فمن أبى أن يكون عبدًا لله، كان عبدًا لهواه.

---

(١) البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢١٥/٨).

وبعد أن يجعل في القيود يلقى به في النار، ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، أي: «اغمروه فيها»[١].

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾، وتأمل فيما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «تَدخُلُ السلسلة في استه، ثُمَّ تَخرُجُ من فيه، ثُمَّ يُنظَمُونَ فيها كَما يُنَظَمُ الجَرادُ في العُود حينَ يُشوَى»[٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾، فكفره هو ما قذف به في ساحات الخزي والمهانة.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾، لم يقم بحق الله، ولا بحق عباده.

وهذا الارتباط بين الكفر وعدم الحض على الإطعام تكرر في مواضع، منها: قول ربنا: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر]، وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون]. وهذا يدل على أهمية القيام بالإطعام والحض عليه، ويشعر بأن من لم يقم بحق الله فهو أجدر بالتفريط في حقوق الناس، وكذلك من كان ديدنه التفريط في حقوق الناس ـ وقد أمر الله بها ـ فرط في حق الله ولا بُدَّ.

وهذه الآيات تدل على أن الكافر مُخاطَب بفروع الشريعة، لكن لا يُقبَل منه عمل إلا بعد الإيمان، وهو مُحاسَب على كفره وتفريطه في واجبات الشرع.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر]. والحميم: القريب.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾، اختلفت عبارات المفسرين في بيان المراد بالغسلين، وما نجزم به أنه طعام خبيث، ولا سبيل إلى القول بكيفيته فهو أمر غَيبي لا دليل يُبيّنُه من كتاب أو سنة.

ويدفع هذا الجزاء عن المرء: إيمانه بالله، وإطعامه للطعام، وحضّه عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢١٦).
(٢) المصدر السابق.

الآيات (٣٨ ـ ٥٢)

فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

ختم السورة بالعودة إلى المقصود، وهو الدلالة على أن ما جاء به النبي ﷺ حق، وواجب الأخذ به، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، أقسم ربنا سبحانه بما نراه، وما لا نراه، وهذا أَعَمُّ قسم في القرآن، فإنه يتناول كلَّ شيء.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾، وأضيف القرآن في القرآن إلى الرسول البشري في هذه الآية، وإلى الملكي في قول ربّنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير]، وذلك لأن نبينا ﷺ بلّغه، وجبريل ﵇ نزل به عليه من ربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، نفي أن يكون القرآن شعرًا، ثم قال: ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأن قليلًا من الإيمان يُدرك به صاحبه هذه الحقيقة، ولما نفى أن يكون القرآن قول كاهن، وقولهم نثر، قال: ﴿قَلِيلٗا مَّا

﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ فإن أمره قد يُشكل على بعض الكفرة، فلو تأمَّلوا لعلموا أنه ليس بقول كاهن.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾، وهنا أُضيف القرآن إلى ربنا سبحانه لأنه المتكلم به.

ومما يؤخذ من الآيات أن إبطال العقائد الخَربة يُحتاج بعده إلى بيان الصحيح؛ لئلا تبقى النفوس في أودية الحَيرة والتّيه.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾، والكلام عن نبينا ﷺ، ومعنى تقول: زاد في الرسالة أو نقص منها. ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾، أي: «لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب»(١).

والأخذ باليمن أشدُّ في البطش، ففي الآية إثبات اليمين، والكناية المومئ إليها بها وهي الأخذة الشديدة بالقوة والقدرة البالغة، ولهذا قال: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: فلا يستطيع أحد أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا البطش به، وفي ذلك توعُّد عظيم لكل مُتقوّل على الشرع، ومن هؤلاء من يفتون بغير شرع الله ويقولون هو من عند الله! جهلًا أو هوى، قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير ﵀: «والمَعنَى في هَذا: بَل هُوَ صادق بارّ راشد؛ لأَنَّ اللّهَ، ﷻ، مُقَرِّر لَهُ ما يُبَلِّغُهُ عَنهُ، وَمُؤَيِّد لَهُ بالمُعجزات الباهرات، والدّلالات القاطعات»(٢).

ثم أخبر بانتفاع صنف من الناس بهذا القرآن، وخسارة قوم آخرين، يكون عليهم وبالًا لتكذيبهم به يوم الدين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾،

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/٥٩٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢١٨).

واليقين درجات ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم المسلم بوجود الكعبة التي يُصلي إليها: علم يقيني، فإذا رآها فقد بلغ رتبة عين، ولو دخل إلى جوفها أو باشر لمسها فهذ حق اليقين. فكذلك القرآن فإنه حق اليقين، يعرف ذلك من مارسه وعمل به وذاق حلاوته ووجد بركته.

ثم ختم الله ﷻ هذه السورة المباركة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، والتسبيح تنزيه الله تعالى، وناسب الختم به لما سبق من إيراد أقوال المكذبين للقرآن.



بين يدي سورة المعارج

وهي مكية بالاتفاق[١].

أسماؤها:

سورة «﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾»، و«﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾»، وسورة «الواقع».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وست عشرَة كلمة، وحروفها ثَماني مئة وَأحد وَستُّونَ حرفا، وَهي أَربَعُونَ وَثَلاث آيات في الشّامي وَأَربع في عدد الباقينَ، اختلافها آيَة: ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، لم يعدها الشّامي، وعدها الباقُونَ، وَلَيسَ فيها ممّا يشبه الفواصل شَيء»[٢].

موضوعها:

- تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة.
- وإثبات ذلك اليوم، ووصف أهواله.
- وتهويل دار العذاب وهي جهنم،

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٢/٢٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٣٥٤).

● وذكـر أسـباب اسـتحقاق عذابهـا. ومقابلـة ذلـك بأعمـال المؤمنـين الـتي أوجبـت لهـم دار الكرامـة.

● وصـف كثير مـن خصـال المسـلمين الـتي بثهـا الإسـلام فيهـم، وتحذيـر المشركـين مـن اسـتئصالهم وتبديلهـم بخـير منهـم[١].

مقصدها:

تثبيـت النـبي ﷺ، وتسـليته؛ حـتى لا يكـون في صـدره حـرج مـن تمردهـم وعـدم إيمانهـم، والتذكـير بمـا ينفـع مـن الصفـات والأعمـال في يـوم القيامـة.

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٣/٢٩).

سورة المعارج: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾، أُهمل ذكر اسمه؛ لأنه لا يترتب على تعيينه شيء، فالاهتمام يكون بموضوع السؤال، لا بالسائل، ولذا لم يُذكر أحد ممن عاصر نبينا ﷺ سوى زيد، وأبي لهب.

﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾، قال ابن عاشور ﵀: «واللام لشبه الملك، أي عذاب من خصائصهم كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]»[1].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾: أي هذا العذاب ينزل من الله ﷻ، ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، وهي الدرجات، تعبيرًا عن علوه ﷻ، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: أي تصعد الملائكة والروح، والروح جبريل ﵇، فالعطف هنا لا يدلُّ على التغايُر، فهذا من باب عطف الخاص على العام.

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٥/٢٩).

وهنا تنبيهان:

● الأول: ليس المراد من الآية أن صعود الملائكة إلى ربها في يوم يكون مقداره خمسين ألف سنة، بل المراد: أن العذاب يكون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وذكر المعارج جملة معترضة[1].

● الثاني: ليس هناك تعارض بين هذه الآية، وبين قول ربنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج]، ومثلها آية السجدة، فيوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة على الكافر لشدته، أما آية الحج وكذا السجدة فإنها لا تتحدث عن طول يوم القيامة، وإنما تتحدث عن طول الأيام التي عند الله تعالى، التي يحدث فيها التدبير، وقدرها بالنسبة لأيام الدنيا التي نعدها، وهي الأيام التي يحدث الله فيها الخلق والتدبير، فبيّن ﷻ أن اليوم عنده يساوي ألف سنة من أيامنا هذه.

ثبت عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**ما من صاحب ذَهَب وَلا فضَّة لا يُؤَدِّي منها حَقَّها إلّا إذا كانَ يَومُ القيامَة صُفِّحَت لَهُ صَفائحُ من نار، فَأُحميَ عَلَيها في نار جَهَنَّمَ، فَيُكوَى بها جَنبُهُ وَجَبينُهُ وَظَهرُهُ، كُلَّما بَرَدَت أُعيدَت لَهُ، في يَوم كانَ مقدارُهُ خَمسينَ أَلفَ سَنَة، حَتَّى يُقضَى بَينَ العباد فَيَرَى سَبيلَهُ إمّا إلَى الجَنَّة وَإمّا إلَى النّار**»[2].

وثبت عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «هذا يوم القيامة، جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»[3].

وقول ربنا: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ دليل على علوه.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/١٥٧).
(٢) مسلم (٩٨٧).
(٣) جامع البيان للطبري (٢٣/٦٠٢).

ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾، هذا هدي القرآن: بذل النصيحة، ولو كان المنصوح من الأخيار، ولا يليق بأحد أن يرد نصح الناصحين مهما علت مكانته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة].

قال ابن تيمية رحمه الله: «والصَّبر الجميل صَبر بلا شكوى، قالَ يَعقُوب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، مَعَ قَوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف]، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصَّبر الجميل»(١).

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾، يعُدون وقوعه بعيدًا لا يمكن وقوعه. كما قال ربنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق].

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، ولذا تحدث عنه ربنا بصيغة الماضي؛ لتحقق وقوعه، قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ [النحل].

وهكذا في كل ما وعد الله به، ثق بوقوعه، ولو استبعد ذلك من لا إيمان له! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء].

---

(١) الزهد والورع والعبادة، ص(٩٩).

الآيات (٨ ـ ١٨)

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

المهل: رديء الزيت، والعهن: الصوف. والحميم: القريب[1]. فلا يسأل أحد أحدًا عن شأنه، مع أنه قد بكى لما فارقه، وامتلأ قلبه حزنًا عليه بوفاته! وليس يبعد أن لو وجد سبيلًا يفديه به لفعل، ثم إذا لقيه في الآخرة لا يسأل عنه؛ من هول اليوم الآخر. وهذا المعنى تكرر في القرآن، قال ربنا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون]. وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

وهذا الانشغال ليس بسبب أنه لم يره! بل أثبت الله تعالى الملاقاة والرؤيا بقوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

ثم انتقلت السورة بنا إلى بيان حال هي أدلُّ على شدة اليوم الآخر من هذه الحال؛ وهي: أن الإنسان يودُّ أن يفتدي من العذاب ببنيه، وصاحبته، وأخيه، وأهله كلهم،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٢٢٤).

وجميع من في الأرض، أي: لو خُيّر بين أن يُعذَّب، وبين عذاب هؤلاء لاختار عذابهم لسلامة نفسه. قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾. فذكر الأبناء أولًا لشدة تعلق القلب بهم، ولم يقل بعدهم: وزوجه؛ لأن الزوجية تثبت بمجرد العقد ولو لم يكن بينهما من لقاء، لكنه قال: ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾؛ للدلالة على العشرة والملازمة وطول المكث بينهما.

ولم يذكر الوالدان هنا، وقد ذكرا في قول ربنا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس]؛ وذلك مراعاةً لجانب الأدب معهما؛ لأنه لا يليق أن تذكر رغبته في أن يفتدي بوالديه.

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾، أي: ليس الأمر كما تمنّى هذا المجرم. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾، وسميت النار بذلك لأنها تتلظّى وتلتهب، وتشوي اللحم، وتنزعه نزعًا شديدًا.

﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، تنادي عليهم بأسمائهم، تناديهم إليها بسبب إعراضهم في الدنيا عن الإيمان والحق، وبسبب كنزهم للذهب والفضة وعدم إعطاء المسكين حقّ الله فيه[1].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/٢٢٣).

الآيات (١٩ ـ ٣٥)

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، هذا كشف لطبيعة الإنسان، فهو بطبعه هلوع. فما الهلوع؟ فسَّره بما بعده، قال ربنا: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، إذا أصيب بشرّ جَزع وقَنط من رحمة ربه، وإذا جاءه الخير منع حقَّ الله فيه، وهذا طبع كثير من الناس.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، وهذا علاج الهلع، لما ذكر ربنا الناجين من الهلع بدأ بالمصلين وختم بهم.

وهذا يدل على كبير أثر الصلاة في الوقاية من ذلك، وفي تحقيق التُّؤَدة، والطمأنينة، والسكينة.

وقد أمر ربنا بالاستعانة بها، قال سبحانه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة].

وثبت عَن حُذَيفَةَ ﷺ، أنه قالَ: «كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمر، صَلَّى»[١].

وهـذا هـدي الخليـل ﷺ، فإنـه لمـا أُخـذت منـه سـارة عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ فـزع إلى الصـلاة، قـال نبينـا ﷺ: «لَـم يَكـذب إبراهيـمُ ﷺ إلا ثَـلاثَ كَذبـات، ثنـتـين منهـنَّ في ذات الله ﷻ، قَـولُهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩﴾ [الصافات]. وقَـولُهُ: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وَقـالَ: بَينـا هُـوَ ذاتَ يَـوم وَسـارَةُ، إذ أَتَى عَلَى جَبّـار مِـنَ الجَبابِـرَة، فَقيـلَ لَهُ: إنَّ ها هُنا رَجُلًا مَعَـهُ امرَأَة من أحسَـن النّاس، فَأَرسَـلَ إلَيـه فَسَـأَلَهُ عَنها، فَقـالَ: مَـن هَـذه؟ قـالَ: أُخـتي، فَـأَتَى سـارَةَ قـالَ: يـا سـارَةُ: لَيـسَ عَلَى وَجـه الأَرض مُؤمِـن غَـيري وَغَـيرَك، وَإنَّ هَـذا سَـأَلَني فَأَخبَرتُـهُ أَنَّـك أُخـتي، فَـلا تُكَـذّبيني، فَأَرسَـلَ إلَيها فَلَمّـا دَخلَـت عَلَيه ذَهَـبَ يَتَناوَلُها بيَـده فَأُخـذَ، فَقالَ: ادعي اللهَ لي وَلاَ أَضُرُّك، فَدَعَـت اللهَ فَأُطلـقَ، ثُـمَّ تَناوَلَهـا الثّانيَـةَ فَأُخذَ مثلَها أَو أَشَـدَّ، فَقالَ: ادعي اللهَ لي وَلاَ أَضُرُّك، فَدَعَـت فَأُطلـقَ، فَـدَعا بَعـضَ حَجَبَتـه، فَقالَ: إنَّكُـم لَم تَأتُوني بإنسـان، إنَّمـا أَتَيتُمـوني بشَـيطان، فَأَخدَمَهـا هاجَـرَ، فَأَتَتـهُ وَهُوَ قائـم يُصَلّي»[٢].

وفي صحيح مسـلم، عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّهُ قالَ: قال رسـول الله ﷺ: «كانَ جُرَيج يَتَعَبَّـدُ في صَومَعَـة، فَجـاءَت أُمُّهُ، فَقالَت: يا جُرَيـجُ أَنا أُمُّكَ كَلّمـني، فَصادَفَتهُ يُصَلّي، فَقـالَ: اللهُـمَّ أُمّي وَصَـلاتي، فاختـارَ صَلاتَـهُ، فَرَجَعَت، ثُـمَّ عادَت في الثّانيَـة، فَقالَت: يـا جُرَيـجُ أَنا أُمُّـكَ فَكَلّمني، قـالَ: اللهُمَّ أُمّي وَصَـلاتي، فاختارَ صَلاتَـهُ، فَقالَت: اللهُمَّ إنَّ هَـذا جُرَيـج وَهُـوَ ابـني وَإنّي كَلَّمتُهُ، فَـأَبَى أَن يُكَلّمَني، اللهُـمَّ فَلا تُمتهُ حَـتَّى تُريَهُ المُومسـات، وَلَـو دَعَـت عَلَيه أَن يُفـتَنَ لَفُـتنَ. وَكانَ راعي ضَأن يَـأوي إلَى دَيره، قالَ:

(١) سنن أبي داود (١٣١٩)، وهو في صحيح الجامع (٤٧٠٣).
(٢) البخاري (٣٣٥٧).

فَخَرَجَت امرَأَة منَ القَريَة فَوَقَعَ عَلَيها الرّاعي، فَحَمَلَت فَوَلَدَت غُلامًا، فَقيلَ لَها: ما هَذا؟ قالَت: من صاحب هَذا الدَّير، قالَ فَجاءُوا بفُئُوسهم وَمَساحيهم، فَنادَوهُ، فَصادَفُوهُ يُصَلِّي، فَلَم يُكَلّمهُم، قالَ: فَأَخَذُوا يَهدمُونَ دَيرَهُ، فَلَمّا رَأَى ذَلكَ نَزَلَ إلَيهم، قال: ما شَأنُكُم؟ قالُوا: زَنَيتَ بهَذه البَغيّ، فَوَلَدَت منكَ، فَقالَ: أَينَ الصَّبيُّ؟ فَجاءُوا به، فَقالَ: دَعُوني حَتَّى أُصَلّيَ، فَصَلَّى، فَلَمّا انصَرَفَ أَتَى الصَّبيَّ فَطَعَنَ في بَطنه، وَقالَ: يا غُلامُ مَن أَبُوكَ؟ قالَ: فُلان الرّاعي، قالَ: فَأَقبَلُوا عَلَى جُرَيج يُقَبّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ به، وَقالُوا: نَبني لَكَ صَومَعَتَكَ من ذَهَب، قالَ: لا، أَعيدُوها من طين كَما كانَت، فَفَعَلُوا»[1].

والشاهد من القصة: استعانته بالصلاة في وقت المحنة.

وإن مما يُستغرب لمثله: أن بعض طلاب العلم عندما يتكلم عن الصلاة لا يذكر إلا نصوص الترهيب من تركها والتهاون فيها! فأين نصوص الترغيب التي امتلأ بها الكتاب والسنة؟ وهذه بعض الآيات التي تبيّن ذلك[2]:

فالصلاة منهاة عن الإثم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وأهلها هم الآمنون يوم العرض على الله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧﴾ [البقرة].

وذُكر في الآية أن الأجر ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، لفائدتين:

الأولى: ليُعلم أنه كبير، والثانية: ليُعلم أنه لا يضيع.

وهي عبادة الأنبياء السابقين:

---

(١) مسلم (٢٥٥٠).
(٢) وانظر كتابي: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ تجد تفصيلاً لذلك.

قال الخليل ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ [إبراهيم].

وقال عن إسماعيل ﷺ: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم].

وقال ربنا لكليمه موسى ﷺ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه].

وقال عيسى ﷺ: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ [مريم].

وقال لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه].

وقال عن جملة منهم: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾، المقصود به الزكاة، ففي المال نصاب معين لذوي الحاجات من السائلين ومن لا يقدرون على التكسب[1].

وبعد أن استثنى الله تعالى من جنس الإنسان الهلوع الجزوع المنوع المداومين على صلاتهم، والمزكين لأموالهم، عطف عليهم أصحاب صفة لا بُدَّ منها في كل مسلم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾، وهذا يشعر بأن الإيمان باليوم الآخر - وهو يقتضي تصديقًا وعملًا - من أعظم أسباب المداومة على الصلوات، وإخراج الزكوات، وأشار إلى العمل بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾، فهؤلاء قوم مصدقون بيوم الجزاء والحساب، ومع التصديق هم عالمون غير مغترين، بل مشفقون يعلمون تقصيرهم مهما عملوا،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤١٨).

ويعلمـون أن الواجـب في حـق الله أعظـم مـن أن يوفّيـه اجتهـاد، وأنـه لـن يدخل الجنـة أحـد بعملـه، إلّا أن يتداركـه الله برحمتـه، وقـد جـاء في الصحيح عن رسـول الله ﷺ أنـه قـال: «**لن ينجي أحـد منكم عمله**»، قـال رجل: ولا إياك يا رسـول الله؟ قـال: «**ولا إيـاي، إلا أن يتغمـدني الله منـه برحمـة، ولكن سـددوا**»(١).

ومـن كَمُـل إشـفاقه في الدنيـا كمـل أمانـه يـوم القيامة، ومـن خـاف في الدنيا أمّـن الله خوفـه يـوم العـرض عليـه. قـال ربنـا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور]. فهـؤلاء خافـوا في الدنيـا وأمنـوا في الآخـرة، وكـم ممـن انقلب حـاله، فأمن في الدنيـا وتجـرأ على مـا حـرم الله، فعوقـب بالخـوف في الآخـرة! قـال ربنـا: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]. قـال ربنـا في الحديث القـدسي: «**قال الله ﷻ: وعـزتي لا أجمع لعبدي أمنـين ولا خوفين، إن هـو أمنـني في الدنيـا أخفته يـوم أجمع فيه عبـادي، وإن هو خافـني في الدنيا أمنته يوم أجمـع فيه عبـادي**»(٢).

ثـم قـال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾، والعفـة الـتي أثـنى الله تعـالى على أهلهـا في هـذه الآيات لهـا كثير من الفضائـل، مـن ذلك:

- تزكية النفس.

ولذا لمـا أمـر الله بهـا في آيـة غـض البـصر قـال: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور]، فمـن أراد أن يُـزكيَ نفسـه فعليـه بالعفـة.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، ومعناه فيهما من حديث عائشة ﷺ.
(٢) أبو نعيم في الحلية (٦/٩٨).

● ومنها: مغفرة الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

● ومنها: نيل معونة الله.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثَة حَقّ عَلَى الله عَونُهُم: المُجاهِدُ في سَبيل الله، والمُكاتَبُ الَّذي يُريدُ الأَداءَ، والنّاكِحُ الَّذي يُريدُ العَفافَ**»[1].

● والعفة من أبرز سمات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

● ومن ذلك: أن الله تعالى يدافع عن أهلها.

وهذا دليل على صدق إيمانهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج].

ولقد تولى الله تعالى الدفاع عن ثلاثة من سادات العفيفين في القرآن الكريم:

- أولهم نبي الله يوسف ﷺ، اتهمته امرأة العزيز بالفاحشة فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف]. فأوضح كلُّ من له تعلق بهذه القصة براءة يوسف ﷺ ونقاء سريرته، فقد برأ يوسف ﷺ نفسه عما اتُّهم به ونزَّه ساحته فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف:٢٦]، وقال:

---

(١) الترمذي (١٦٥٥)، وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٥٠).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣]. وبرَّأته امرأة العزيز في قولها: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف:٣٢]، وفي قولها: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف]. وأما تبرئة الشاهد والملك له ففي قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف]. وشهد على ذلك النسوة: ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف:٥١]. وشهد الله تعالى - وكفى بالله شهيدًا - على ذلك بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف].

- وتولى الله الدفاع عن مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، فلقد اتهمت بالفاحشة كما جاء في موضعين في القرآن:

الأول: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النساء].

والثاني: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم].

وبرَّأها الله في موضعين كذلك:

الأول: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء].

والثاني: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم].

ورُميت أمنا عائشة ﷺ، فبُرِّئت في كتاب الله، ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور]، بل برأها الله تعالى في عشر آيات في سورة النور ابتداء من

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور].

● ومن ثمار العفة: إغناء الله لأهلها.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

والإغناء يتحقق بأمور: أن يرزقه ما يتزوج به، أو يجد من ترضى باليسير، وبحاله[١].

● والعفة يستظلُّ الإنسان بها في ظل عرش ربنا يوم تدنو الشمس من الخلائق، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«سَبعَة يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وَشابٌ نَشَأَ بعبادَة الله، وَرَجُل قَلبُهُ مُعلّق في المَساجد، وَرَجُلان تحابّا في الله اجتَمَعا عَلَيه وَتَفرّقا عَلَيه، وَرَجُل دَعَتهُ امرَأة ذاتُ مَنصب وَجَمال فَقالَ: إنّي أَخافُ اللهَ، وَرَجُل تَصدّقَ بصَدَقة فَأَخفاها؛ حَتّى لا تعلَمَ يَمينُهُ ما تُنفقُ شمالُهُ، وَرَجُل ذَكَرَ اللهَ خاليًا فَفاضَت عَيناهُ»**[٢].

● وأعظم ثمرة للعفة: دخولُ الجنة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب]. والأجر العظيم: الجنة. وثبت عَن سَهل بن سَعد ﷺ، عَن رَسول الله ﷺ قالَ: **«مَن يَضمَن لي ما بَينَ لَحيَيه وَما بَينَ رجلَيه أَضمَن لَهُ الجَنّةَ»**[٣].

ومن خوارم العفة: الاستمناء، وحكمه مبين في كتاب ربنا، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون]، فكل من جعل شهوته في غير ما ذكر الله فهو من العادين.

---

(١) راجع جامع القرطبي (١٢/٢٤٣).
(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٩٢٣).
(٣) البخاري (٦٤٧٣).

ثـم قـال تعـالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: إذا اؤتمنوا لـم يخونوا، وإذا عاهـدوا لـم يغـدروا. والأمانـة في القرآن يـراد بها ثلاثة أشـياء:

● أحدها: الفرائض، ومنه قـوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

● الثـاني: الوديعـة، ومنه قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

● الثالـث: العفة، ومنه قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص]، فقـد أرادت بهـا العفـة؛ لأنـه كان لا ينظـر إليهـا، ولمـا كشـفت الريح عن شيء منهـا أمرهـا مـوسى ﷺ أن تكـون مـن خلفه وتنعـت له الطريـق بالحجر[(١)].

وكل مـا أمرنـا الله بـه فهـو أمانـة، عـن ابن مسـعود ﷺ قـال: «القتل في سـبيل الله يكفـر الذنـوب كلهـا إلا الأمانـة، يـؤتى العبد يـوم القيامـة وإن قُتل في سـبيل الله فيقـال: أد أمانتـك. فيقـول: أي رب كيـف وقد ذهبـت الدنيا؟! فيقـال: انطلقوا بـه إلى الهاويـة، فينطلـق بـه إلى الهاوية، وتمثـل له أمانتـه كهيئتها يـوم دفعت إليه، فيراهـا فيعرفهـا، فيهـوي في أثرها حتى يدركهـا، فيحملها على منكبيـه، حتى إذا ظن أنـه خـارج زلت عن منكبيـه، فهو يهـوي في أثرها أبـد الآبدين». ثم قـال: «الصلاة أمانـة، والوضـوء أمانـة، والوزن أمانـة، والكيل أمانة، ـ وذكر أشـياء ثم قال: ـ وأشـد ذلـك الودائع»[(٢)].

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر (١/١٠٥).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٠٧)، برقم (٤٨٨٥)، وهو في صحيح الترغيب (١٧٦٣)، وقد رُوي مرفوعاً لكنه ضعيف. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٩/٦٩) بعد أن ضعَّف رفعه وذكر وقفه على ابن مسعود ﷺ:
وقد أخرجه أبو نعيم من طريق أخرى، عن شريك به موقوفًا على ابن مسعود، وهو الذي رجحه الحافظ المنذري، فقد ساقه في «الترغيب» (٣/٢١ ـ ٢٢) عن ابن مسعود موقوفًا عليه، ثم قال: «رواه البيهقي موقوفًا، ورواه بمعناه هو وغيره مرفوعًا، والموقوف أشبه». وقال الحافظ الناجي فيما كتبه على «الترغيب» (ق ١٦٤/١): «وكذا رواه أحمد، وذكر ابنه عبد الله في «كتاب الزهد» أنه سأله عنه ؟ فقال: إسناده جيد».

ومـن أعظـم مـا يرغـب في أداء الأمانـة: أن لهـا أثـرًا كبـيرًا في النجـاة مـن كلاليـب الـصراط وخطاطيفـه، لحديـث حُذَيفَـة وأبي هريـرة ﷺ، قالا: قالَ رَسُـول الله ﷺ: «يَجمَـعُ اللهُ ﷻ النـاسَ فَيَقُـومُ المُؤمنُونَ حَـتَّى تُزلَفَ لَهُمُ الجَنَّـةُ، فَيأتُونَ آدَمَ صَلَـواتُ الله عَلَيـه، فيقُولُـونَ: يا أَبانا اسـتَفتح لَنـا الجَنَّـةَ، فَيقُولُ: وَهَـل أخرَجَكُم مِـنَ الجَنَّـة إلّا خَطيئَـةُ أبيكـم! لَسـتُ بصاحـب ذلـكَ، اذهَبُـوا إلَى ابـني إبراهيـمَ خَليـلِ الله. قـالَ: فَيَأتُـونَ إبراهيـمَ فَيَقُـولُ إبراهيم: لَسـتُ بصاحب ذلـكَ إنَّما كُنتُ خَليـلًا مـن وَراءَ وَراءَ، اعمَـدُوا إلَى مُـوسَى الَّذي كَلَّمَـهُ الله تَكليمًـا. فَيأتُونَ مُوسَى، فَيَقُـولُ: لسـتُ بصاحـب ذلـكَ، اذهَبُوا إلَى عيـسى كلمة الله ورُوحـه، فيقول عيسى: لسـتُ بصاحـب ذلـكَ، فَيأتُونَ مُحَمَّـدًا ﷺ فَيَقُـومُ فَيُؤذَنُ لَهُ، وتُرسَـلُ الأَمانَـةُ والرَّحمُ فَيَقُومـان جَنبَـتَي الـصّراط يَمينًا وَشـمالًا فَيمُـرُّ أَوَّلُكُم كالـبَرق»[1].

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، لا يزيـدون عليهـا، ولا ينقصـون منهـا، ولا يكتمونهـا، ولا يؤجلونهـا.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾، وقال قبلهـا: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، فمـا الفـرق بينهمـا؟ الجـواب: معـنى دوامهـم عليهـا، أن يواظبـوا على أدائهـا، ولا يشـتغلون عنهـا بـشيء مـن الشـواغل، وأمـا محافظتهـم عليهـا: أن يُراعوا إسـباغ الوضـوء لهـا، ومواقيتها، وسـننها، وآدابها، فالدوام يرجع إلى نفـس الصلاة، والمحافظة تعـود إلى أحوالها[2].

---

(١) مسلم (١٩٥).
(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٤/٦١٢).

الآيات (٣٦ ـ ٤٤)

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾



﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾، مهطعين: قيل مسرعين إليك مادّي أعناقهم يتعجبون منك! وقيل مسرعين عنك؛ نافرين فهذا حالهم مع نبينا ﷺ، يفرُّون من مجالسه متفرقين، كما قال ربنا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر].

وهذه النصوص التي تدل على نفور المشركين من مجالسه يدل على أن ما جاء من الأحاديث التي تبين علمهم بما يدعو إليه من أخلاق أنه كان يكررها كثيرًا حتى علم بها المعرضون عنه، كالعفة والصلة، كما في حديث هرقل مع أبي سفيان لما كان مشركًا، قال له هرقل: بمَ يَأمُرُكُم؟ فقالَ: يَأمُرُنا بالصَّلاَة والزَّكاة والصِّلَة والعَفاف، قالَ: إن يَكُ ما تَقُولُ فيه حقًّا، فإنَّهُ نَبيٌّ[1].

---

(١) البخاري (٤٥٥٣).

وقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ استفهام إنكاري يفصح عما يعتمل في نفوس القوم من الطمع الذي بنوه على الأماني، وما معهم مستند ولا قوة تكفل حصول ما يصبون إليه، ولهذا قال زاجرًا ورادعًا: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تذكيرًا لهم بحقيقتهم ومبدأ أمرهم، إشعارًا بضعفهم وهوانهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وفي آية أخرى قال ربنا: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن]، وفي ثالثة: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]. ولا تعارض بين هذه الآيات، فالمشرق بالإفراد مكان شروق الشمس، والمغرب مكان غروبها، والمراد بالتثنية: مشرق الصيف والشتاء، ومغرب الصيف والشتاء، وفي انتقال الشمس من مشرق الصيف إلى مشرق الشتاء تطلع بمطالع كثيرة، فهذه هي المشارق، ومكان غروبها كل يوم وهي تنتقل إليه من فصل إلى فصل هذه هي المغارب.

وهذه الصيغة ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ في غير موضع من كتاب الله تعالى وفي المراد بها ثلاثة أقوال:

● الأول: أنه نفي للقَسَم، والمعنى أن هذه المسألة من الظهور بحيث لا تحتاجُ إلى قَسَم عليها.

● الثاني: أن المنفيَّ محذوف يقدَّر بما يناسبُ السياق، ويكون المعنى: لا ليس الأمرُ كما زعمتُم في البعث، أُقسم بيوم القيامة إنه لآت.

● الثالث: أن ﴿لا﴾، جاءت لتأكيد القَسَم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، ثم قال بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]، فأثبتَ أنه أقسَمَ. وهذا هو الصواب.

وقوله: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾، قادرون على أن نأتي بخير من أجسامهم هذه بعد أن تأكلها الأرض، كما قال ربنا:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة]. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾، يخوضون في باطلهم، وينهمكون في لعبهم، فإذا جاء يوم القيامة ندموا على ما كان منهم، وكم فيها من عزاء لأهل الإيمان الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا!

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وهذه من السخرية بهم؛ لأنهم في الدنيا يركضون لأصنامهم يبتدرونها للتبرُّك بها، ويوم القيامة يسرعون بغير اختيارهم إلى موطن حسابهم وجزائهم.

وكما كانوا عنه ﷺ مهطعين فهم إلى جزاء ذلك مهطعين.

والله أعلم.



بين يدي سورة نوح

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

لهذه السورة المباركة اسمان؛ تعرف بسورة نوح، وبسورة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وَأَربع وَعشرُونَ كلمة. وحروفها تسع مئة وَتسعَة وَعشرُونَ حرفًا. وَهي عشرُون وثماني آيات في الكُوفي، وتسع في البَصريّ والشامي، وَثَلاثُونَ آيَة في المَدَنيين والمكي. اختلافها أَربع آيات: ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾، لم يعدها الكُوفي وعدها الباقُونَ. ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، عدها المدني الأَخير والكوفي وَلم يعدها الباقُونَ. ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، عدها المدني الأول والمكي وَلم يعدها الباقُونَ. ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، لم يعدها الكُوفي وعدها الباقُونَ»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/١٨٥).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٥).

موضوعاتها:

● قصة نوح ﷺ، وما اشتملت عليه من الدعوة إلى توحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام، وإنذاره قومه بعذاب أليم، واستدلاله لهم ببدائع صنع الله تعالى، وتذكيرهم بيوم البعث، وتصميم قومه على عصيانه وعلى تصلبهم في شركهم.

● تسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها.

● دعوة نوح على قومه بالاستئصال.

● الإشارة إلى الطوفان.

● دعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار على الكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق وإكثار النسل ونعيم الجنة[1].

مقصدها:

زجر الكافرين.

قال في التحرير والتنوير: «أعظم مقاصد السورة: ضرب المثل للمشركين بقوم نوح ﷺ، وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا.. وفي ذلك تمثيل لحال النبي ﷺ مع قومه بحالهم»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٦/٢٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٨٥/٢٩ ـ ١٨٦).

سورة نوح: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٤)



إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾، ونـوح ﷺ أول رسـول أرسـله الله إلى أهل الأرض. قال ربنـا: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ولـم يقـل: مـن قبلـه. وقد كان بـأرض العراق.

وفي حديث الشفاعة: «**وَلَكِن ائْتُوا نُوحًا؛ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ**»[١].

وبـدأ بالإنـذار؛ لحاجـة الكفار إلى ذلـك. «والإنـذار: الإبـلاغ، ولا يكون إلا في التخويف»[٢].

والإنـذار: التخويـف مـن شيء تتمكـن مـن النجـاة منـه، أمـا إذا لـم يتسـع الوقـت لذلـك فهو إشـعار.

---

(١) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).
(٢) الصحاح للجوهري (٢/٨٢٥).

وأن يكون الرسول من قومه، يعرفون نسبه، ونعته، هذا أدعى لقبول كلامه، قال ربنا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾، فيها دليل على الترفُّق بالمدعوّ، وتقريبه؛ طمعًا في قبوله، واستجابته.

وهذا الحوار الذي جرى بين نوح ﷺ وبين قومه يدل على أهميته في الدعوة إلى الله، قال ربنا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وفي هذه السنوات كلها لم يسأم من محاورتهم، ولم يترك هذا الأسلوب إلى غيره.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾، وهذا تأكيد لأمر الرسالة التي جاء بها، وإنما احتيج إلى تأكيد كلامه لتوقُّع استغرابهم الذي يحمل على التكذيب، وقد كان ذلك منهم. وقد امتلأ القرآن الكريم بالقسم وبالمؤكدات؛ لأن الله يخاطب به الناس أجمعين، وأكثرهم عن الحق معرضون.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾، تكلَّم معهم بجوامع الكلم؛ لشدة إعراضهم عنه، فأجمل لهم ما جاء به إليهم في هذه الكلمات، وبيَّن لهم ما يترتب عليها فقال:

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، وقوله: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾، هذا ترغيب، وهذا دأب المرسلين والصالحين مع أقوامهم، يُرغبونهم في الإيمان بمغفرة الله لذنوبهم، قال ربنا: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف]. وهو من الترغيب الذي يُذكر

في خطاب الله للمؤمنين، قال ربنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف].

و﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، بيانيَّة، وليست تبعيضية[١]. فإن الإسلام يهدم ما قبله، قال نبينا ﷺ: «**أَما عَلمتَ أَنَّ الإسلامَ يَهدمُ ما كانَ قَبلَهُ؟ وَأَنَّ الهجرَةَ تَهدمُ ما كانَ قَبلَها؟ وَأَنَّ الحَجَّ يَهدمُ ما كانَ قَبلَهُ؟**»[٢].

ورسول الله نوح ﷺ جمع في أسلوب دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، وهذا هدي نبينا ﷺ الذي جاء به القرآن، وما أحسن الجمع بينهما في تربية الآباء لأولادهم والمعلمين لطلابهم!

والترغيب الذي دعاهم به مشتمل على أمرين: أمر أخروي، وأمر دنيوي. فالمغفرة تكون في الآخرة، أما في الدنيا فرغبهم بتأخير آجالهم. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

قال ابن كثير ﷺ: «أي: يَمُدُّ في أعمارِكُم، وَيَدرَأُ عَنكُمُ العَذابَ الَّذي إن لَم تَنزجِرُوا عَمّا نَهاكُم عَنهُ، أَوقَعَهُ بِكُم. وَقَد يَستَدِلُّ بِهَذه الآيَة مَن يَقُولُ: إِنَّ الطَّاعَةَ والبرَّ وَصِلَةَ الرَّحِم، يُزادُ بها في العُمرِ حَقِيقَةً؛ كَما وَرَدَ بِه الحَديثُ: «**صِلَةُ الرَّحِم تَزيدُ في العُمر**».

---

(١) راجع: فتح القدير (٣/١١٧).
(٢) مسلم (١٢١).

وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾، أَي: بادرُوا بالطَّاعَة قَبلَ حُلُول النقمَة، فَإِنَّهُ إذا أَمَرَ اللهُ تَعالَى بكون ذَلكَ لا يُرَدُّ وَلا يُمانَعُ، فَإِنَّهُ العَظيمُ الَّذي قَهَرَ كُلَّ شَيء، العَزيزُ الَّذي دانَت لعزَّته جَميعُ المَخلُوقات»[١].

فتأخير الأجل بصلة الرحم والبر ثابت في السنة، وهذا التغيير يكون في المكتوب في صحف الملائكة، أما ما في اللوح المحفوظ فلا يتغير، وعلى هذا فُسّر قول ربنا: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد][٢].

والله يقدر الأمور بأسبابها، فعَن أَنَس بن مالك ﷺ قال: سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَن سَرَّهُ أَن يُبسَطَ لَهُ رزقُهُ، أَو يُنسَأَ لَهُ في أَثَره، فَليَصل رَحمَهُ»[٣]. وعَن سَلمانَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَرُدُّ القَضاءَ إلّا الدُّعاءُ، وَلاَ يَزيدُ في العُمر إلّا البرُّ»[٤]. فيُقدَّر أن فلانًا يزيد عمره لأخذه بهذه الأسباب، وفلان يقصر عمره لعدم أخذه بها، فيكون التغيير في صحف الملائكة، وما كتب في اللوح المحفوظ فلا يطرأ عليه تغيير أبدًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣١/٨).
(٢) زاد المسير (٥٠١/٢).
(٣) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).
(٤) الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

الآيات (٥ ـ ٢٠)

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

بعد سنوات طويلة من التكذيب كان منه هذا الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾، وكم من الدعاة إلى الله تعالى لا يعطي الدعوة إلا فضول وقته! ومجتمعات المسلمين في حاجة كبيرة إلى تكثيف أنشطة الدعاة، وشدة العناية بها.

وهذا يذكر بنبيّ الله يوسف ﷺ الذي قام بالدعوة إلى الله في كل مكان، حتى في السجن، قال الله عنه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾، أي هروبًا من الاستجابة لدعوتي، ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وغطوا رؤوسهم بثيابهم؛ لئلا يسمعوا منه، وأصروا على ما هم فيه، ولم يقبلوا الحق الذي جاء به.

وهذا يدل على شدة حرصه على هدايتهم، وهذا حال الأنبياء، ويدل ما سبق من الآيات على أنه لا هاديَ لمن أضل الله، فلا يملك التوفيق للخير مَلَك مقرب، ولا نبيّ مُرسل، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي الآيات ذكر لسبب إعراضهم، وهو الكبر، وهذا الخُلُق لا يأتي بخير، فالمتكبر يحتقر الناس، ولا يقبل نصحهم.

ومع هذا الإعراض الشديد الذي لقيه من قومه لم يترك دعوتهم إلى ما فيه نجاتُهم، قال: ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾، فمع عدم التواني ووصله الليل بالنهار، كان سبيله في ذلك الجهر تارة بالدعوة في المحافل، والإسرار تارة في الخلوات، وتارة الجمع بين الإعلان والإسرار.

ومن تأمّل في هذه الآيات علم أن نبي الله نوح ﷺ استخدم وسائل الدعوة كلها في مختلف الأوقات، والحكيم العاقل من اختار لكل قوم ما يناسبهم من الأساليب المختلفة.

وقصة نوح ﷺ تدل على أن الدعوة عند الصادقين لا تنتهي بانتهاء دوام، أو يتوقف عنها في يوم عطلة! بل إن همها يجري في عروقهم ودمائهم، ولا تطيب حياتهم إلا بها. ومن هنا تدرك معنى مقالة العلامة ابن باز ﷺ: «الحياة في سبيل الله، أصعب من الموت في سبيل الله».

وفي هذه القصة المباركة: أن الداعية إذا أدى ما عليه فليس مسؤولًا عن إعراض المعرضين من قومه، قال ربنا: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾

[المائدة: ٩٩]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وما دعا إليه نوح ﷺ وإخوانه من الأنبياء الذين جاؤوا بعده: توحيد الله، ولذا يحق لنا أن نقول: إن كل دعوة يضعف فيها جانب التوحيد فليست على منهاج النبوة. ومما يؤسف عليه أن تسمع من يقول: الدعوة إلى التوحيد تُفرّق! بلى! تُفرّق بين الحق والباطل، وتُفرّق بين الكفر والإيمان، قال ربنا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان]، فسمي القرآن فرقانًا لذلك. وهل جمع النبي ﷺ أصحابه إلا بلا إله إلا الله؟!

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ أي: كثير المغفرة لعباده، والمغفرة: ستر الذنب، والتجاوز عنه. فهذه ثمرة من ثمرات الاستغفار.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾ [النساء].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي**»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّ الشَّيطانَ قالَ: وَعزَّتكَ يا رَبّ، لا أَبرَحُ أُغوي عبادَكَ ما دامَت أَرواحُهم في أَجسادهم. قالَ الرَّبُّ: وَعزَّتي وَجَلالي، لا أَزالُ أَغفرُ لَهم ما استَغفَروني**»(٢).

(١) الترمذي (٣٥٤٠)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٢٧).
(٢) أحمد (١١٢٣٧)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ.

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ: «**أَذنَبَ عَبد ذَنبًا فَقالَ: اللهُمَّ اغفر لي ذَنبي. فَقالَ ﷻ: أَذنَبَ عَبدي ذَنبًا، فَعَلمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بالذَّنب. ثُمَّ عادَ فَأَذنَبَ، فَقالَ: أَي رَبِّ اغفر لي ذَنبي. فَقالَ ﷻ: عَبدي أَذنَبَ ذَنبًا فَعَلمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بالذَّنب. ثُمَّ عادَ فَأَذنَبَ، فَقالَ: أَي رَبِّ اغفر لي ذَنبي. فَقالَ ﷻ: أَذنَبَ عَبدي ذَنبًا، فَعَلمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بالذَّنب، اعمَل ما شئتَ فَقَد غَفَرتُ لَكَ**»[١].

أي: ما دمت تُذنب وتستغفر فإني أغفر لك، ولو تكرر الذنب منك.

وقال نبينا ﷺ: «**مَن قالَ: أَستَغفرُ اللهَ الَّذي لا إلَهَ إلّا هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إلَيه، غُفرَ لَهُ، وَإن كانَ قَد فَرَّ من الزَّحف**»[٢].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: حدثني أبو بكر الصديق ﷺ - وصدق أبو بكر - قال: سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**ما من عَبد يُذنبُ ذَنبًا فَيُحسنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكعَتَين، ثُمَّ يَستَغفرُ اللهَ إلّا غَفَرَ اللهُ لَهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ هَذه الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِينَ ..﴾ [آل عمران: ١٣٥][٣].

● ومن ثمرات الاستغفار وفضائله: سعة الرزق.

فقد وعد نوح ﷺ قومه بهذا فقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾.

قال ابن كثير ﷺ: «إذا تُبتُم إلَى الله واستَغفَرتُمُوهُ وَأَطَعتُمُوهُ، كَثُرَ الرِّزقُ عَلَيكُم، وَأَسقاكُم من بَرَكات السَّماء، وَأَنبَتَ لَكُم من بَرَكات الأَرض، وَأَنبَتَ لَكُمُ الزَّرعَ، وَأَدَرَّ لَكُمُ الضَّرعَ، وَأَمَدَّكُم بأَموال وَبَنينَ، أَي: أَعطاكُمُ الأَموالَ والأَولادَ، وَجَعَلَ لَكُم جَنّات فيها أَنواعَ الثّمار، وَخَلَّلَها بالأَنهار الجاريَة بَينَها.

(١) مسلم (٢٧٥٨).
(٢) أبو داود (١٥١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٢٧).
(٣) أبو داود (١٥٢١)، وهو في صحيح الجامع (٥٧٣٨).

هَذا مَقامُ الدَّعوَة بالتَّرغيب»[١].

وقال ربنا: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

وقال عن هود ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

وتأمل فيما ذكره من ثمرات عاجلة للاستغفار؛ فهذا منهج الأنبياء في الدعوة، يُرغّبون قومهم بما يجدونه من الخير في الدارين، والنفس مولعة بحب العاجل.

وفي الآية دليل على أنَّ الولد يرجى بالاستغفار، فمن ابتلي بالعُقم فعليه بهذا الذكر المبارك.

● ومن ثمرات الاستغفار: تفريج الهموم.

فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل همّ فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»**[٢].

والملازمة لا تتحقق إلا بأمرين: الإكثار، والاستمرار. فمن أكثر في وقت دون وقت لم يلزم، ومن أدام منه بإقلال لم يلزمه.

والضيق قد يُفضي إلى الهمّ وقد يكون بدونه، ولهذا كان الاستغفار مخرجًا من كل ضيق، منجيًا من كل هم.

● ومن ثمراته: أنه أمان من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٣٣).
(٢) أحمد (٢٢٣٤)، وأبو داود (١٥١٨)، وصححه الشيخ أحمد محمد شاكر في حاشيته على المسند.

قال الطبري ﷺ: «وكان بعض أهل العلم يقول: هما أمانان أنزلهما الله: فأما أحدهما فمضى: نبيُّ الله. وأما الآخر فأبقاه الله رحمة بين أظهركم، الاستغفارُ والتوبةُ»(١).

● والاستغفار أمان من النار.

فعن عبد الله بن عمر ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتُكنَّ أكثر أهل النار**»(٢).

ولولا أنَّ الاستغفار يعصم من النار لما أرشدهن النبي ﷺ إليه.

● والاستغفار مجلبة لرحمة الله.

قال صالح ﷺ لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل].

● وبه يفرح الإنسان في أرض المحشر.

وفي ذلك حديثان:

■ الأول: عن الزبير ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن تسُرَّه صحيفتُه فليكثر فيها من الاستغفار**»(٣).

■ والثاني: عن عبد بن بسر ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**طوبى لمن وَجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**»(٤).

قال ابن حجر ﷺ: «وطوبى في الأصل شجرة في الجنة، تقدم تفسيرها في صفة الجنة في بدء الخلق، وتطلق ويراد بها الخير، أو الجنة، أو أقصى الأمنية. وقيل: هي من الطيب، أي: طاب عيشكم»(٥).

● ومن فضائله: الرّفعة في الجنة.

---

(١) تفسير الطبري (٥١٤/١٣).
(٢) مسلم (٧٩).
(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢٩٧/١)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٢٩٩).
(٤) ابن ماجه (٣٨١٨)، والحديث في صحيح الجامع (٣٩٣٠).
(٥) فتح الباري (٤٥٠/٧).

قال ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَتُرفَعُ دَرَجَتُهُ في الجَنَّة، فيَقُولُ: أَنَّى هَذا؟ فيُقالُ: باستغفار وَلَدكَ لَكَ»(١).

قال ابن كثير ﷺ: «﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾، أي: مُتواصلَةَ الأمطار. وَلهَذا تُستَحَبُّ قراءَةُ هَذه السُّورَة في صَلاة الاستسقاء لأجل هَذه الآيَة. وَهَكَذا رُوِيَ عَن أَمير المُؤمنينَ عُمَرَ بن الخَطَّاب: أَنَّهُ صَعدَ المنبَرَ ليَستَسقيَ، فَلَم يَزد عَلَى الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هَذه الآيَةُ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ ثُمَّ قالَ: لَقَد طَلَبتُ الغَيثَ بمَجاديح السَّماء الَّتي سَتُنزلُ بها المَطَرَ»(٢).

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾، قدم نبي الله ﷺ الترغيب ثم ثنى بالترهيب، والمعنى: لا تخافون من عذابه(٣).

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾، وهي التي ذكرها الله في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]، وتفكُّر الإنسان في خلقه يدفعه إلى الإذعان إلى ربه والتواضع له.

وتوقير الله تعظيمه، وذلك بفعل الأوامر، واجتناب ما نهى عنه سبحانه. قال ربنا: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) أحمد (١٠٦١٠)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ.
(٢) تفسير ابن كثير (٢٣٣/٨ ـ ٢٣٤).
(٣) راجع: تفسير ابن كثير (٢٣٣/٨).

فمن توقير الله: توحيده، ومراقبته في السر والعلن، وتعظيم القرآن الكريم، والتدبر في آياته.

ولتوقير ربنا تعالى آثار عظيمة، منها:

● أولًا: تحقيق الإيمان؛ فالذين لم يعظموه قال الله عنهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة].

● ثانيًا: قوة التوكل على الله؛ فبقدر تعظيم الله والخوف منه يكون اعتماد القلب عليه، قال ربنا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

ولذا قال نوح ﷺ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس]، وما ذاك إلا لامتلاء قلبه بالخوف من الله، فلم يبق فيه مكان للخوف من غيره.

وقد ساق لهم جملة آيات تدعوهم إلى تعظيم الله تعالى فقال:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾، وما أكثر التذكير بهذه الآية العظيمة! قال ربنا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾، وإنما كانت الشمس سراجًا لأنها مصدر للضوء، والقمر نور لأنه عاكس لضوء الشمس، ولا يضيء بذاته.

ثم ذكَّرهم بمبدأ الأمر حيث خلق أباهم من تراب، ثم استدل على الإعادة بالبدء، ثم عاد إلى التذكير بنعم الله عليهم حيث بسط لهم الأرض، وجعل فيها طرقًا واسعة يتوصلون بها إلى مآربهم.

الآيات (٢١ ـ ٢٨)

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾



ثم دعا نوح ﷺ وشكا لربه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١)﴾، شكا لله تعالى بهذه الدعوة، فالأنبياء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا، وهداية القلوب ليست إليهم فكيف بغيرهم؟!

وفي الآية: أن الولد والمال قد يكونان سببًا للخسران بين يدي الله تعالى، فمن غفل بهما عن ذكر الله كانا سببًا في هلاكه.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢)﴾، عظيمًا[١]، وينبغي أن يكون في الناس وعي بكيد أعداء الأمة لها، ولكنَّ هذا لا يعني أن نعزو كل شيء إلى ذلك، ففي هذا الأمر تهوين وتهويل، والحق بينهما.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٤).

ولـم يُفصّـل ﷺ مكرهـم وأجملـه، وعَلمنـا من السـورة أنـه كانت لهـم حيل في الصـد عن الإيمـان، والانتصـار لآلهتهـم الباطلة.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾، ومثـل هذه الآيـات مما يشـحذ همم أهـل الحق لاتبـاع الحق ومناصرتـه، فإذا صبر أهـل الباطل في سـبيل باطلهـم فكيـف بأهل الحـق؟! قـال ربنـا: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص].

وهؤلاء جمعوا بين الكفر والصد عن دين الله تعالى.

ثبـت عَـن ابـن عَبّاس ﷺ أنـه قال: «صـارَت الأَوثـانُ الَّـتي كانَـت في قَـوم نُوح في العَـرَب بَعـدُ، أَمّـا وَدّ كانَـت لكَلـب بدَومَـة الجَنـدَل، وَأَمّـا سُـواع كانَـت لهُذَيل، وَأَمّـا يَغُـوثُ فَكانَت لمُـراد، ثُمَّ لبَني غُطَيـف بالجَوف، عندَ سَـبَإ، وَأَمّا يَعُـوقُ فَكانَت لهَمـدانَ، وَأَمّـا نَـسر فَكانَت لحِميَرَ لآل ذي الكَلاَع، أَسـماءُ رجال صالحِـينَ من قَوم نُـوح، فَلَمّـا هَلَكُـوا أَوحَى الشَّـيطانُ إلَى قَومهـم، أَن انصبُـوا إلَى مَجالسـهمُ الَّتي كانُوا يَجلسُـونَ أَنصابًـا وَسَـمُّوها بأَسـمائهم، فَفَعَلُـوا، فَلَـم تُعبَـد، حَـتَّى إذا هَلَـكَ أُولَئـكَ وَتَنَسَّـخَ العلمُ عُبـدَت»(١).

وهـذا ممـا يؤكـد على أن الشـيطان قـد لا يأمـر بالكبيرة مـن أول وهلـة، وإنما يسـلك بمـن أراد إيقاعَـه فيهـا خطوات حتى يرمي بـه في أوحالها، ولذا نـهى ربنا عن اتبـاع خطوات الشيطان في أربعـة مواضع:

قـال ربنـا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقـال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة]، وقـال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام]،

---

(١) البخاري (٤٩٢٠).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وثبت في السنة تحذير عن تعليق الصور؛ سدًا لذريعة الشرك بالله، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الملائكة لاتدخل بيتًا فيه تماثيل أو صورة**»(١).

قال تعالى: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤﴾، فكانت لدعوتهم ولدأبهم في الصد نتيجة، وهي الإضلال الكثير، وفي قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾، أن إضلال العباد زيادة في ضلال المضلّ والضال، وكما أن الإيمان يزداد بالطاعة، فكذلك الكفر والضلال يزيد بالمعصية والإضلال.

ويستفاد من قول نوح عليه السلام من أول السورة إلى هذا الموضع أنه يجوز في الدعاء بيان الحال، إن كان المرء قد أبلغ في الطاعة، أو قد أبلغ الظالم في ظلمه، فله أن يذكر ما فعل توسلًا به إلى حضور القلب وإجابة الرب عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾، فبسبب ذنوبهم وخطيئاتهم أغرقوا، وهذا من شؤم الذنوب والعصيان، فبها دُمّرت الأمم وأُبيدت، قال الله عز اسمه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت]. فما أهون الخلق على الله تعالى إذا ضيعوا أمره!

---

(١) أحمد (١١٨٥٨)، وهو في صحيح الجامع (١٩٦١).

قال: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾، «نُقلوا من تيّار البحار إلى حرارة النّار»(١).

وهذه الآية شاهد على إثبات عذاب القبر، فالفاء على ما هو مقرر في اللغة: «للتّرتيب والتعقيب، فإذا قيل جاءَ زيد فعمرو فَمَعناه أن مَجيء عَمرو وَقع بعد مَجيء زيد من غير مهلة، فَهي مفيدة لثلاثة أُمُور: التّشريك في الحكم، والتّرتيب، والتعقيب»(٢).

وفي القرآن آيات تقرر هذه العقيدة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

قال ابن كثير ﷺ: «﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾، وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تُعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أشده ألما وأعظمه نكالًا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»(٣).

وعرض القوم على العذاب عذاب، كما في الآية، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

ومنها: قول ربنا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٦/٨).
(٢) شرح قطر الندى وبل الصدى، ص(٣٠٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٠٣/٤).

قال ابن جرير رحمه الله: «﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدُفنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يَلقَون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهددًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... عن علي، قال: نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في عذاب القبر»[1].

ومنها: قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة]. قال مجاهد رحمه الله: «﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، بالجوع، وعذاب القبر. قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، يوم القيامة». وهو قول قتادة، والربيع بن أنس»[2].

ثم قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «فَدَعا عَلَيهم نوحُ دَعوَتَهُ الَّتي قالَ اللهُ تعالَى مُخبرًا عَنهُ أَنَّهُ قالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر]، فَعندَ ذَلكَ أَوحَى اللهُ تَعالَى إِلَيه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فَلا تَحزَن عَلَيهم وَلا يَهُمَّنكَ أَمرُهُم»[3].

ومؤدى هذا أن دعاءه عليهم قبل أن يوحي الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، والظاهر خلافه، لكونه علل الدعوة هنا بخبر غيبي فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾، وهذا حكم على الغيب لا يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلا بوحي، فما دعا عليهم عليه السلام إلا بعد الإياس منهم.

وهذا يقود إلى الحديث عن مسألة الدعاء على الكافرين، وفي صحيح البخاري بابان: باب الدعاء للمشركين، وباب الدعاء على المشركين. ودلت النصوص على أمور:

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٥٨٠).
(٢) تفسير الطبري (١٤/٤٤٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣١٩).

● امتناع النبي ﷺ عن الدعاء عليهم. ثبت عن أبي هريرة ﷺ، أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: ألا تدعو على الكفار؟ فقال: **«إن الله بعثني رحمة ولم يبعثني لعانًا»**[١].

● وثبت الدعاء لهم بالهداية. ففي الصحيحين دعاءُ نبينا ﷺ: **«اللهُمَّ اهد دوسًا وأت بهم»**[٢]، بعدما امتنعوا عن قبول الدعوة ورفضوها.

● وثبت الاستغفار لهم حال حياتهم. فعَن عَبد الله بن مسعود ﷺ قالَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَى رَسُول الله ﷺ يَحكِي نَبيًّا من الأنبياء ضَرَبَهُ قومُهُ وَهُوَ يَمسَحُ الدَّمَ عَن وَجهه وَيَقُولُ: **«رَبِّ اغفر لقومي؛ فَإِنَّهُم لا يَعلَمُونَ»**[٣].

قال القرطبي ﷺ: «وقد قال كثير من العلماء: لا بأس أن يدعوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ما داما حيَّين، فأما من مات: فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدعى له»[٤].

ودليل ما ذكر ﷺ: قول ربنا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة].

لكن ثبت أيضًا الدعاء على الكفار المحاربين للمسلمين.

فقد دَعا نبينا ﷺ يَومَ الأحزاب عَلَى المُشركينَ فَقالَ: **«اللهُمَّ مُنزلَ الكتاب، سَريعَ الحساب، اللهُمَّ اهزم الأَحزابَ، اللهُمَّ اهزمهُم وَزَلزلهُم»**[٥].

وفي الصحيحين أنه ﷺ قنت يدعو عليهم حين يَفرغ من صَلاة الفَجر من القراءَة وَيُكَبِّرُ وَيَرفَعُ رَأسَهُ: «**سَمعَ الله لمَن حَمدَهُ، رَبَّنا وَلَكَ الحَمدُ**»، ثُمَّ يَقولُ وَهُوَ قائم: **«اللَّهُمَّ أَنج الوَليدَ بنَ الوَليد، وَسَلَمَةَ بنَ هشام، وَعَيّاش بنَ أَبي رَبيعَةَ،**

---

(١) مسلم (٢٥٩٩).
(٢) البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).
(٣) البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).
(٤) تفسير القرطبي (٢٧٤/٨).
(٥) البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

والمُستَضعَفينَ من المُؤمنينَ، اللَّهُمَّ اشدُد وَطأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، واجعَلها عَلَيهم كَسني يُوسُفَ، اللَّهُمَّ العَن لحيانَ وَرعلًا وَذَكوانَ وَعُصَيَّةَ عَصَت اللهَ وَرَسُولَهُ»[1].

وسبيل التوفيق بين هذه الأحاديث ما قاله ابن حجر ﵀: «أنه ﷺ كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم كما تقدم في الأحاديث التي قبل هذا بباب، والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تألفهم»[2].

وعليه فلا شك في مشروعية الدعاء على الدول التي جعلت محاربة الإسلام أكبر همها، وذاق المسلمون في مختلف البقاع بأسها.

ولا يقال: كيف ندعو عليها وفيها مسلمون؟! فقد كان العباس بمكة وهو قرشي، وفي مكة مسلمون من قريش كما قال ربنا: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح] ومع ذلك دعا النبي ﷺ على قريش، ونحن ندعو على الدول الباغية وندعو للمسلمين بالحفظ، وفي السنة دعاء بإنجاء المسلمين المستضعفين.

وهذا نوح ﵇ قد دعا على القوم لما كثر أذاهم وقل خيرهم وأيس منهم، حتى إنه دعا عليهم باستئصال يعم كافرهم فلا يُبقي منهم ديارًا واحدًا، «والديّار الذي يسكن الديار»[3].

وفي آخر السورة هذه الدعوة المباركة: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وهي دليل على مسائل:

---

(١) البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥).
(٢) فتح الباري (٦/١٠٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٦).

● أن الداعي يقدم نفسه في دعائه على غيره. قال تعالى عن موسى ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وعن الخليل ﷺ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠]، وعن نوح ﷺ: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.

● ودلت الآية على أن والدي نوح ﷺ كانا مؤمنين، وإلا لتبرأ منهما كما تبرأ الخليل ﷺ من أبيه بعد أن استغفر له.

● وفيها: الدعاء للوالد المسلم، وهذا من أعظم سبل بره؛ حيًا، وميتًا.

● ودلت على أنّ من دخل بيتك فله مزيد حق عليك، فادعُ له بصفة خاصة كما فعل نبي الله ﷺ.

● وفيها: الدعاء للغير، وهذا مما رغّبت السُّنَّة فيه، فعن أُمّ الدَّرداء، عَن أَبي الدَّرداء ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ما من عَبد مُسلم يَدعُو لأَخيه بظَهر الغَيب، إلّا قالَ المَلَكُ: وَلَكَ بمثل**»[1].

ودلت قصة نوح ﷺ على أنّ عدم استجابة المدعوّين لا يعني الداعية؛ فالهداية بيد ربنا سبحانه[2].

(١) مسلم (٢٧٣٢).
(٢) انظر: رسالة المؤلف (حقيقة الانتصار).



بين يدي سورة الجن

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «﴿الْجِنِّ﴾»، و«﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾»، و«﴿قُلْ أُوحِيَ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وَخمس وَثمانُون كلمة، ككلم المزمل. وحروفها سبع مئة وَتسعَة وَخَمسُونَ حرفًا. وَهي عشرُون وثماني آيات في جَميع العدَد»[٢].

سبب نزولها:

«عَن ابن عَبّاس ﷺ قالَ: ما قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الجنّ وَما رَآهُمْ، انطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ في طائفَة من أَصحابه عامدينَ إلَى سُوق عُكاظ، وَقَد حيلَ بَينَ الشَّياطين وَبَينَ خَبَرِ السَّماء، وَأُرسلَت عَلَيهمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَت الشَّياطينُ إلَى قَومهم فَقالُوا: ما لَكُم؟ قالُوا: حيلَ بَينَنا وَبَينَ خَبَرِ السَّماء وَأُرسلَت عَلَينا الشُّهُبُ. قالُوا: ما ذاكَ إلّا من شَيء حَدَثَ، فاضربُوا مَشارقَ الأَرض وَمَغاربَها فانظُرُوا ما هَذا الَّذي حالَ بَينَنا وَبَينَ خَبَرِ السَّماء. فانطَلَقُوا يَضربُونَ مَشارقَ

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢١٦).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٦).

الأَرض وَمَغاربَهـا، فَمَـرَّ النَّفَـرُ الَّذيـنَ أَخَـذُوا نَحـوَ تهامَةَ ـ وَهُـوَ بنَخـل عامدينَ إِلَى سُـوق عُـكاظ وَهُوَ يُصَـلِّي بأَصحابه صَـلاةَ الفَجر ـ فَلَمّا سَـمعُوا القُرآنَ اسـتَمَعُوا لَهُ، وَقالُـوا: هَـذا الَّذي حـالَ بَينَنا وَبَينَ خَبَر السَّـماء فَرَجَعُـوا إِلَى قَومهم فَقالُـوا: يا قَومَنا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾. فَأَنـزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى نَبيِّـه مُحَمَّـد ﷺ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾»[1].

موضوعاتها:

- بلوغ دعوة النبي ﷺ إلى الجن.
- تنزيه المؤمنين من الجن ربَّهم عن الصاحبة والولد.
- ذم إبليس؛ لانتقاصه لربه.
- بيان بطلان عبادة بعض الإنس للجن.
- حراسة السماء من الجن بعد بعثة النبي ﷺ.
- إبطال الكهانة.
- انقسام الجن إلى مؤمن وكافر.
- حسن عاقبة المؤمن بحفظ حسناته وعدم نقصانها.
- بيان أن الكفار حطب جهنم.
- حسن عاقبة الاستقامة على دين الله.
- التأكيد على عدم صرف العبادة لغير الله تعالى.
- بيان أن رسول الله ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا.

مقصدها:

إظهـار شرف النـبي ﷺ والكتـاب الذي أنـزل عليـه، والدعوة إلى الإيمـان بهما والاسـتقامة؛ فـإن النجـاة لا تتحقـق إلا بذلـك لكل مكلف.

---

(١) البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

سورة الجن: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

الجن خَلق لله، خلقهم من نار.

وقد خلقوا قبل آدم ﷺ، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر].

والعلة من خلقهم: عبادة الله تعالى، قال ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

وفي الجن المؤمن والكافر، والصالح والفاسق، قال ربنا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾، وقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١﴾.

وسُمُّوا جنًّا؛ لاستتارهم، قال ربنا: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وإبليس من الجن، وليس من الملائكة، وأما قول ربنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف]. فالاستثناء في الآية منقطع.

قال العلامة الشنقيطي ﷺ: «وقوله في هذه الآية الكريمة، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن، وقد تقرر في الأصول في مسلك النص، وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي: لأجل سرقته. وسها فسجد، أي: لأجل سهوه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، أي: لعلة سرقتهما. وكذلك قوله هنا كان من الجن ففسق أي: لعلة كينونته من الجن، لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة، لأنهم امتثلوا الأمر وعصا هو، ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهبت جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن، وأنه كان يتعبد معهم، فأُطلق عليهم اسمهم لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها»[1].

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾، فهؤلاء الجن سمعوا النبي ﷺ في صلاة الفجر يقرأ القرآن فآمنوا وتأثَّروا، وكم من المسلمين يسمع القرآن يتلى عليهم ولا يتأثرون!

ومن الوقفات: أن نبينا ﷺ كان يقرأ القرآن، ولا يدري أن الجن يستمعون إليه، وأنهم سيؤمنون بهذه القراءة المباركة؛ فانشر الخير، واصدُق مع الله فيه، فإنك لا تدري من سيهتدي بكلامك، والله يُعطي على الصدق ما لا يُعطي على غيره.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/٢٩٠).

ومن الوقفات: أهمية الاستدلال بالقرآن في الخطاب الدعوي؛ لعظيم تأثيره. وإنك لتعجب من بعض الدعاة حين يملأ كلامه بأنواع البيان من المنظوم والمنثور، ثم لا تجد مساحة فيما يقول لآي القرآن الكريم!

وقد قالت أم هشام بنتُ حارثَةَ بن النُّعمان ﵂: «ما أَخَذتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إلّا عَن لسان رَسُول الله ﷺ، يَقرَؤُها كُلَّ يَوم جُمُعَة عَلَى المنبَر، إذا خَطَبَ النَّاسَ»[1].

وقال ربنا عن الجن في سورة الأحقاف: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠﴾ [الأحقاف]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والقرآن كتاب مبارك، فلا يُذكر شيء منه في خطاب دعوي أو غيره إلا حلَّت البركة فيه، قال ربنا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص]، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو الناس بالقرآن الكريم، ولذلك قال المشركون: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت]، فقد علموا قوة تأثيره في المدعوِّين، وقد كان شيخنا ابن باز ﵀ يضمن في محاضراته آيات كثيرة، وربما استشهد أحيانًا في المحاضرة الواحدة بالقرآن خمسين مرة! وقد ذكر أحد أكابر الدعاة ممن عاشوا في الغرب زمانًا ذكر أنه ما وجد أبلغ في الدعوة إلى الإسلام ولا أمرًا أدعى للغربيين من الدخول في الإسلام من القرآن.

---

(١) مسلم (٨٧٣).

وقوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾، خبر منهم عن أنفسهم لمّا سمعوا القرآن، والجمع بين الإيمان وعدم الإشراك لأن الإيمان لا يستقيم إلا بإفراد الله تعالى بالعبادة، فلا بدَّ من مخالفة المشركين الذين نزلت فيهم: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف].

والجمع بين الإيمان وعدم الإشراك كثير في كتاب ربنا، قال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣﴾، «قال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره»[1]. والجَدُّ: «الحَظ والغنىَ في الدُّنيا»[2]. وقد كان نبينا ﷺ يقول دبر كل صلاة: «**لاَ إِلَهَ إِلاّ الله وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ، وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لاَ مانِعَ لما أَعطَيتَ، وَلاَ مُعطِيَ لما مَنَعتَ، وَلاَ يَنفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ**»[3]. أي: «**من كان له حظ في الدنيا لم ينفعه ذلك منه في الآخرة**»[4].

وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣﴾ ولم يقل: ما اتخذ صاحبة وولدًا، فلو قيل ذلك لقال من ينسب الولد إليه: نحن لا ننسب إليه الصاحبة والولد جميعًا، وإنما ننسب إليه الولد فقط، أو الصاحبة فقط، فنفاهما جميعًا؛ حتى لا يبقى لمتأول أي تأول، ولا لمجادل أي باب من المجادلة.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤﴾، فالسفيه هو الذي كان يدعوهم إلى الشرك، وهو إبليس لعنه الله. وقيل: المراد كفارهم[5]. والشطط: الباطل، قال سبحانه: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ [الكهف].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٧).
(٢) لسان العرب (٣/١٠٧).
(٣) البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).
(٤) لسان العرب (٣/١٠٧).
(٥) زاد المسير (٤/٣٤٧).

وكل من دعا إلى غير ما دعا الله إليه ففيه سَفَه، وما أكثر السفهاء الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ويعبثون بعقائد الناس وأفكارهم! لا سيما في عصر الانفتاح الإعلامي، فقد أصبحت علاقة بعض أولادنا بهذه الوسائل الإعلامية أكثر من علاقته بأبيه وأمه، ومن علاقته بمجالس الحفظ، والحلقات والعلم!

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾، أي: «ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك»[١]. فهؤلاء كانوا على فطرتهم، ولم يتوقعوا أن أحدًا يكذب على الله. وهذا أفحش الظلم، قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام].

ولذا لا بُدَّ من يقين أن كثرة القول بالباطل لا تجعله حقًا، ولا سبيل إلى معرفة الحق إلا بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، فما وافقهما فهو الحق وإن قال به بعيد بغيض، وما خالفهما فهو الباطل وإن قال به قريب حبيب.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾، أي: خوفًا[٢]، طلبوا الأمن منهم فأحاط الخوف بهم! فما تعلق أحد بغير الله إلا عوقب بنقيض قصده، وفي الحديث: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**»[٣].

فعلى المسلم أن يقطع تعلُّقه بغير الله تعالى.

وهذا مما يحمل المرء على أن يكفر بالدجاجلة والكُهّان والسَّحَرة، فإن من تعلَّق بهم وُكل إليهم، وأي خسارة أكبر من خسارة أن يُوكَل أحد إلى من قال الله فيه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧﴾ [يونس]؟!

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٩).
(٢) انظر: جامع بيان الطبري (٢٣/٦٥٦).
(٣) أحمد (١٧٤٠٤)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ في تخريجه.

وقد قال نبينا ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

فالخوف لا يكون إلا من الله، أما الخوف الطبعي من الأمر المخوف فهذا لا ينهى عنه! قال الكليم عليه السلام لفرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقال ربنا عن خليله عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود]. فهذا خوف طبعي لا يؤاخذ به الإنسان، أما أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء، من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك، بقدرة المخلوق ومشيئته، فهذا هو الشرك عياذًا بالله.

وأما الخوف من وعيد الله الذي توعد به العصاة فهو عبادة، قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ابراهيم]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن].

وفي آداب القرآن وتوجيهاته: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والأمن من الشيطان بالتحصن بذكر الله تعالى، ففي حديث رواه الترمذي، قال نبينا ﷺ: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس

---

(١) الترمذي (٢٥١٦)، وهو في ظلال الجنة (٣١٦ ـ ٣١٨).

في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[١].

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس]، قال ابن عباس ﵄: «ما من مولود إلا على قلبه الوَسواس، فإذا عقل فذكر الله خَنَس، وإذا غَفَل وسوس، قال: فذلك قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾»[٢].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾، «يعني أن الرجال من الجنّ ظنوا كما ظنّ الرجال من الإنس أن لن يبعث الله أحدًا رسولًا إلى خلقه، يدعوهم إلى توحيده»[٣].

---

(١) الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٥٢).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/٧٠٩).
(٣) تفسير الطبري (٢٣/٦٥٧).

الآيات (٨ ـ ١٧)

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾



بعد أن ذكروا حالهم مع القرآن وما دعاهم إليه وما كانوا يعتقدونه، ذكروا إرهاصات كانوا يجدونها تحقق صدق مبعثه ﷺ، ثم الواجب حيال ذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾، وهذه من إرهاصات بعثة النبي ﷺ، كانوا يسترقون السمع، ويأخذون الكلمة ويزيدون عليها ما شاؤوا فيصدقهم الناس، فحمى الله ﷻ السماء، فمُنعت الشياطين من استراق السمع كما في هذه الآية.

وهذا يدل على أن كل أمر عظيم تُوضع له مقدمات؛ تمهيدًا له.

وفي قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾، بيان لمنعهم الاستراق وكيف كان. وفي الآية إشارة إلى أهمية حماية العقيدة، وصيانتها مما يُدنّسها، وأن هذا الدين محفوظ بقدرة الله تعالى.

وواجب علينا أن نصون الدين بما نستطيع؛ فتحمى العقيدة ببيانها، والرد على أهل الأهواء والبدع والعقائد الخَربة، وحراسة السُّنة بالذب عن حياضها برد شبهات المنكرين لها، وحراسة الدين بالرد على شبهات الملحدين، والمرتدين، والمنافقين، والعلمانيين، حول كتاب رب العالمين سبحانه، هذا الجهاد العلمي من أعظم الجهاد الذي لا يُدانيه في فضله جهاد ولهذا قال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان]، ومن أشبه بالأنبياء سلوكًا وسبيلًا ممن جعل ذلك همه وشغله؟

والمقصود كما أرسلت الشهب على الشياطين لمنعهم من استراق السمع والزيادة أو النقصان في الدين، فعلينا أن نرسل شُهُب الحق، وحُجَج الوحي على الأفاكين المفترين على الدين.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، فيه حيرتهم من الأمر الذي قدر قبل أن يسمعوا الوحي.

وتأمل: كيف نسبوا الخير إلى الله تعالى، ولم ينسبوا الشر إليه، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، ﴿أُرِيدَ﴾، بالبناء على ما لم يُسمَّ فاعله، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، بالبناء للمعلوم، فهذا أدب إخواننا من الجن، وهذا وردَ في القرآن في مواضعَ عديدة:

قال خليل الرحمن ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء]، ولم يقل: وإذا أمرضني الله فهو يشفيني!

والخضر ﷺ لما خرق السفينة قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، فنسب أمر خرقها إليه، وهو القائل: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، ولكنه حسن الأدب مع الله في الخطاب؛ لنفور النفس من ذكر اسم الجلالة بعد ذكر لفظ العيب.

ولما ذكر ما هو خير في الظاهر والباطن من أمر بناء الجدار قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

وهذا هدي نبينا ﷺ، الذي قال في ثنائه ودعائه: «**والشرُّ ليس إليك**»[1]، ولا شك أن ما في الكون كله بقدر الله ﷻ، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، ولكنه الأدب في الخطاب مع رب الأرباب.

فلا غرو بعد أن قدموا بهذا الأدب أن أعلنوا الإيمان: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾، وذكروا من مصلحته ضمان العدل، فلا بخسَ وهو النقص يلحق المؤمن، ولا رهقَ وهو تحميله تبعة غيره أو أو جزاء فوق جزاء جرمه.

وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن]، فيهم أصحاب أهواء وبدع ومشارب شتى حداثية وغيرها! قال ابن كثير ؒ: «قال أحمد بن سليمان النجاد في أماليه، حدثنا أسلم بن سهل بحشل، حدثنا علي بن الحسن بن سليمان ـ هو أبو الشعثاء الحضرمي، شيخ مسلم ـ حدثنا أبو معاوية قال: سمعت الأعمش يقول: تروَّحَ إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز. قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة فيكم؟ قال:

---

(١) مسلم (٧٧١).

شرُّنا. عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش»(١).

والصالح: من قام بحق الله تعالى، وحق عباده.

ومن هدايات الآية: البعد عن تزكية النفس، لقولهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، ولم يشيروا إلى أنفسهم بالصلاح، بل تحدثوا عن الفريقين ولم يجعلوا أنفسهم في واحد منهما. وفيما قال الله في كتابه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

ثم ذكروا نتيجة ما سمعوا، وما رأوا من إرهاصات، وما علموا، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾، عرفوا أنه لا يهرب أحد من أمر الله. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن].

ثم حكموا على واقعهم بعد أن أخبروا عنه فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾. والناس فريقان في الدنيا وفي الآخرة، قال ربنا: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى].

والمسلمون أقسام ثلاثة: سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه. قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر]. فالسابق بالخيرات: من اجتنب المحرمات وسارع إلى الخيرات، والمقتصد: من اقتصر على

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٢).

فعل الواجبات وتجنب المحرمات، وظلم النفس يكون بالتفريط في الواجب وارتكاب الحرام. قالت أمنا عائشة ﷺ: «كُلُّهم في الجَنَّة»(١). فالله تعالى قال بعد ذلك: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾، أي: هؤلاء الثلاثة.

قال العلامة الشنقيطي ﷺ: «من أرجى آيات القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا... ﴾ [فاطر: ٣٢]، فقد بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن إيراث هذه الأمة لهذا الكتاب دليل على أن الله اصطفاها في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾، وبين أنهم ثلاثة أقسام:

● الأول: الظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضًا، فهو الذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة].

● والثاني: المقتصد، وهو الذي يطيع الله، ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات.

● والثالث: السابق بالخيرات، وهو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة، وهذا على أصح الأقوال في تفسير الظالم لنفسه والمقتصد والسابق

ثم إنه تعالى بيَّن أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنات عدن وهو لا يخلف الميعاد في قوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر]، والواو في يدخلونها شاملة للظالم، والمقتصد والسابق على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: حقّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين»(٢).

---

(١) تفسير البغوي (٦/٤٢٢).
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/٤٨٩ ـ ٤٩٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾. والقول الصحيح في هذه الآية، أنهم لو استقاموا على الحق لوسَّعنا عليهم في أرزاقهم، وهذه كقول ربنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. فما معنى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؟ «أي: لنختبرهم، كما زيد بن أسلَمَ: «﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، مَن يَستمرُّ عَلَى الهدايَة ممَّن يرتدُّ إِلَى الغوايَة»؟[1]. وربنا قال عن نبيه سليمان ﷺ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل].

قال ابن رجب ﷺ تعالى: «أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، وقد فسر أبو بكر ﷺ الاستقامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره»[2]؟

ومن أعظم ثمراتها ما جاء في قول ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت]. «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾، على ما خلَّفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٤٣/٨).
(٢) جامع العلوم والحكم، ص(١٩٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١٧٧/٧).

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾، المراد: «ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله، يسلكه الله عذابًا صعدًا: عذابًا شديدًا شاقًا»(١). كما قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

ثم ختموا بالتأكيد على الواجب الأهم فقالوا: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، والمساجد إما مواضع السجود أو المساجد بيوت الله، وكلها لله، ليست لأحد من البشر، فلا تُشغل بما يضاد توحيد الله ﷻ، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا تصرفوا شيئًا من العبادة لغير الله تعالى.

وحريّ بالقائمين على أمر المساجد أن يطهروها من كل شائبة شرك، ومما يؤسف عليه أن هناك مساجد في بعض بلاد المسلمين فيها القبور، وهناك مساجد يُدرس فيها الشرك، ويؤصَّل فيها له، وتُدرس فيها البدعة! وهذا كله يتنافى مع حرمتها، ويحولها عن حقيقتها.

ولا تدل الآية على منع تسمية المساجد بأسماء الناس أو غير ذلك، فقد أثر ذلك في عهده ﷺ، كمسجد قباء، ومسجد الخيف، ومسجد بني زريق، والمسجد النبوي، وغير ذلك فلا حرج في تسمية المساجد بالأشخاص أو البقاع للتعريف، وهذا لا يعارض ما في هذه الآية الكريمة.

---

(١) جامع البيان (٢٣/٦٦٤).

الآيات (١٩ ـ ٢٨)

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾. ولبدًا: أي مجتمعين، ومتزاحمين. وهذه الآية فيها ثلاثة أقوال، أوردها ابن الجوزي عليه رحمة الله بقوله: «والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضًا؛ حرصًا على سماع القرآن، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب رسول الله ﷺ وائتمامهم به في الركوع، والسجود، فكأنهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبدًا. وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس. والثالث:

أن المعنى: لما قام رسول الله ﷺ بالدَّعوة تلبَّدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه، ليبطلوا الحق الذي جاء به، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد»(١).

ولا منافاة بين هذه المعاني، فالخلاف بينها يسير، واجتماعها وارد، وإذا جاءت الأقوال غير متضادة ويحتملها المعنى فالأخذ بها أولى من إبطال بعضها بدون دليل، وبخاصة إذا قال بها أئمة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: قل للمشركين القائلين على الله الكذب، المكذبين له، المجتمعين على عداوته: لمَ هذه العداوة وإنما أتيتكم بالحق، وهو عبادة الله وحده؟ كما قال ربنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة]، وكما في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج].

والدعاء في الآية العبادة.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾، وهذا أمر من الله تعالى لنبينا ﷺ أن يُعلّق القلوب بربها ببيان أن الخير والأمر كله لله، فلا يملك أحد لهم شيئًا مما فيه نفعهم أو ضرهم، حتى لو كان رسول الله ﷺ، حيًّا أو ميتًا، فيا خسارة من يتعلق بالأولياء أحياءً وأمواتًا!

ثم بيَّن كذلك أنه لا يملك له أحد من الله شيئًا فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾، والمعنى: لا ينصرني أحد سوى الله، ولا أجد ملجأ ومهربًا من الله(٢).

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٥٠).
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٢٤٥).

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، وفي هذه معنى بديع: أي: لا يجيرني ويخلصني منه إلا إبلاغ رسالته سبحانه، فما على الرسول إلا البلاغ، والقيام بالبلاغ سبب للنجاة من عذاب الله تعالى. وهذا مما يبين أهمية القيام بالإصلاح في مجتمعاتنا، فما تواطأ قوم على تركه إلا حلت بهم عقوبة ربهم، ولم يجدوا لهم من دون الله ملتجأ ومهربًا، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

ولئن كان ذلك الوعيد بعذاب الدنيا فشأن الآخرة أعظم، وقد نبَّه ربنا على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، فخلود الكفار في جهنم خلود أبدي، وهذا ما قرره نبينا ﷺ في أحاديث، منها: حديث أَبي سَعيد الخُدريّ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُؤتَى بالمَوت كَهيئَة كَبش أَملَحَ، فَيُنادي مُناد: يا أَهلَ الجَنَّة، فَيَشرَئِبُّونَ وَيَنظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَل تَعرفُونَ هَذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَم، هَذا المَوتُ، وَكُلُّهُم قَد رَآهُ، ثُمَّ يُنادي: يا أَهلَ النَّار، فَيَشرَئِبُّونَ وَيَنظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَل تَعرفُونَ هَذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَم، هَذا المَوتُ، وَكُلُّهُم قَد رَآهُ، فَيُذبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يا أَهلَ الجَنَّة خُلُود فَلاَ مَوتَ، وَيا أَهلَ النَّار خُلُود فَلاَ مَوتَ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم][1].

ثم نبههم إلى أن ذلك مصير لا عاصم منه، ولا ناصر لهم يمنعهم عن حلول العقوبة بهم، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، أي: إذا رأى الكفار ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون أنه لا أحد ينصرهم، وأنهم أقل عددًا من جنود الله تعالى، وأذل من أن يقوموا لهم.

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

ولما كان مثل هذا الوعيد، يسبق إليه التكذيب والسؤال عن الميعاد قال: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾. فعلم وقت الساعة غيب لم يطّلع الله تعالى عليه أحدًا، ولا يعلمه إلا هو. وفي حديث جبريل ﵇ لما سأل نبينا ﷺ عن الساعة قال له: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1].

وكذا الغيب لا يُطلع عليه ﷻ عليه أحدًا إلا من شاء الله من رسله، فيوحي إليهم ربهم القدر الذي يريده، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾ أي: يَختَصُّهُ بمَزِيد مُعقّبات مِنَ المَلائكَة يَحفَظُونَهُ من أمر الله، وَيُساوِقُونَهُ عَلَى ما مَعَهُ من وَحي الله[2]، فيكون خبره صادقًا لا يتطرق إليه بطلان لأجل ذلك.

وقوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾، أي: نبينا ﷺ أن الرسل بلغت الرسالة وحفظوا بأمر الله تعالى. ومن المحتمل عود الضمير إلى ربنا سبحانه، وَيَكُونُ ذَلكَ كَقَوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَكَقَوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت]، مع علمنا أن علم ربنا أزلي محيط بكل شيء، ولكن يذكر علمه بالشيء بعد وقوعه لأنه الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، أما علمه الأزلي فلا تكون المؤاخذة به، والله الموفق.

---

(١) جزء من حديث جبريل الطويل، رواه مسلم في صحيحه برقم (٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٧).



بين يدي سورة المزمل

وهي مكية، سوى آخر آية منها(١).

أسماؤها:

ليس لهذه السورة سوى اسم واحد، وهو: «سورة ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمُهـا مئـة وَتسـعُونَ كلمة، وحروفهـا ثَماني مئـة وَثَمانية وَثَلاثُـونَ حرفًا، وَهي ثَمـاني عـشرَة آيَـة في المدني الأَخير، وتسـع عشرَة في المَـكّي»(٢).

سبب نزولها:

عَـن ابـن عَبّـاس ﷺ، قـالَ: «لَمّـا نَزَلَـت أَوَّلُ المُزَّمّـل، كانُـوا يَقُومُـونَ نَحوًا من قيامهـم في شَـهر رَمَضـانَ، حَـتَّى نَـزَلَ آخرُهـا، وَكانَ بَينَ أَوَّلهـا وَآخرها سَـنَة»(٣).

موضوعاتها:

● أمر النبي ﷺ بقيام الليل، وبيان أنه مما يستعان به على أداء مهمة البلاغ.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٥٢).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٧).
(٣) أبو داود (١٣٠٥)، وصححه الشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص(٢٥٦).

● أمـر نبينـا ﷺ بالتـوكل على الله تعـالى، وبالصـبر، والإعـراض عـن تكذيب المشركـين، والإكثـار من ذكـر ربه.

● الثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل.

● توعد المشركين بالجحيم.

● ذكر ما حل بفرعون لما كذب نبيه ﷺ.

● الأمر بملازمة تلاوة القرآن على مختلف الأحوال.

● الأمر بإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وإعطاء الصدقات، والاستغفار.

مقصدها:

الإعانة على تحمّل أعباء تبليغ الدعوة.

سورة المزمل: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾، نداء لطيف، فمن اللطف أن يُنادى المرء ببعض صفاته الجميلة، أو المتلبس بها، يقال: أيها القائم، أيها القاعد، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، فالنداء اللطيف عند التكليف يحمل على أدائه على أكمل وجه وأحسنه.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾، أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقيام الليل، فامتثل النبي ﷺ لأمر ربه، فعن عائشة ﵂ قالت: «كانَ نَبيُّ الله ﷺ إذا صَلّى صَلاةً أَحَبَّ أن يُداوِمَ عَلَيها، وَكانَ إذا غَلَبَهُ نَوم أَو وَجَع عَن قيام اللّيل صَلّى من النّهار ثنتَي عَشرَةَ رَكعَةً»[1]. وفي الصحيحين، عَن المُغيرة بن شُعبَةَ ﵁، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ صَلّىَ حَتّىَ

(١) مسلم (٧٤٦).

انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١).

وهذه بعض فضائل هذه العبادة العظيمة التي أمر بها نبينا ﷺ:

فقيام الليل يُعين على تحمل المشاق.

ومدح الله تعالى أهل الإيمان والتقوى بجميل الخصال وجليل الأعمال، ومن أخص ذلك قيام الليل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة].

ووصفهم في موضع آخر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ [الفرقان]، ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان].

وذكر قيام الليل في صفات المتقين في الذاريات، قال ربنا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات].

وأما الترغيب في هذه العبادة في دواوين السنة فكثير، من ذلك:

- قال نبينا ﷺ: «أفضلُ الصَّلاة بعدَ الفريضَة صَلاةُ اللَّيل»(٢).
- وقال: «عليكم بقيام اللَّيل؛ فإنَّه دأبُ الصَّالحين قبلكم، وهو قُربة إلى ربِّكم، ومَكفرَة للسَّيِّئات، ومَنهاة للإثم»(٣).

---

(١) البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).
(٢) مسلم (١١٦٣).
(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٩)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٤٥٢).

● وعَـن عَلِيّ ﷺ قـالَ: قـالَ النَّـبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجَنَّـة غُرَفًـا تُـرَى ظُهورُهـا مـن بُطُونهـا، وَبُطُونُهـا مـن ظُهُورهـا»، فَقـامَ أعرابيّ فَقـالَ: لمَـن هِيَ يا رَسُـولَ الله؟ قالَ: «لمَـن أَطـابَ الـكَلامَ، وَأَطعَـمَ الطَّعـامَ، وَأَدامَ الصّيـامَ، وَصَـلَّى لله باللَّيـل والنّـاسُ نيام»(١).

● وعَـن سَـهل بـن سَـعد ﷺ، قـالَ: جـاءَ جبريـلُ ﷺ إِلَى النَّـبيّ ﷺ، فَقـالَ: «يـا مُحَمَّـدُ، عـش ما شـئتَ فَإنَّـكَ مَيّـت، وَأَحبب مَـن أَحبَبـتَ فَإنَّـكَ مفارقُـهُ، واعمَل مـا شـئتَ فَإنَّـكَ مَجزيّ بـه»، ثُـمَّ قـالَ: «يـا مُحَمَّـدُ شَرَفُ المُؤمـن قيـامُ اللَّيـل وَعزُّهُ اسـتغناؤُهُ عَن النّـاس»(٢).

﴿ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ ﴾، أعـرف بعـض المشـايخ العُبّاد يقـوم الليل لخمس سـاعات في الصيف والشـتاء، فـكان يتحرج مـن إجابة دعوات العشـاء في الصيف؛ لقـصر الليـل فيه، فسـأل الشـيخ محمد بن عثيمـين ﷺ، فقال له: لا حـرج أن تعتذر.

ويقـول أحد طـلاب العلم: إن جده إذا جـاء لزيارة والده، ينتظـر الثلث الأخير كل ليلة ليقومه.

وفي الآيـة لـم يذكـر الله تعـالى مـدة القيـام على جهـة التحديـد، وإن كان النبي ﷺ قـد بـيَّن في قصـة عبـد الله بن عمـرو ﷺ أن أفضـل القيـام قيـام داود ﷺ، قال نبينـا ﷺ: «أَحَـبُّ الصَّـلاَة إِلَى الله صَلاَةُ داوُدَ ﷺ، وَأَحَبُّ الصّيـام إِلَى الله صيامُ داوُدَ، وَكَانَ يَنـامُ نصـفَ اللَّيل وَيَقُـومُ ثُلُثَهُ، وَيَنامُ سُدُسَـهُ، وَيَصُـومُ يومًا، وَيُفطـرُ يَومًا»(٣).

﴿ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ ﴾، وهنـا أمـر لافـت للنظـر، وهو علاقـة القرآن بالليـل، ففي هذه السـورة: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ ﴾، ونـزول القـرآن كان في ليلة القدر، ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ ﴾ [القدر].

---

(١) الترمذي (١٩٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٩٤٧).
(٢) الحاكم (٣٦٠/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣).
(٣) البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

ومدارسة جبريل ﷺ لنبينا ﷺ كان في كل ليلة، فقد ثبت عَن ابن عَبّاس ﷺ، قال: «كانَ رَسُولُ الله ﷺ أجوَدَ النّاس، وَكانَ أجوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضانَ حينَ يَلقاهُ جبريلُ، وَكانَ يَلقاهُ في كُلِّ لَيلَة من رَمَضانَ فَيُدارسُهُ القُرآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجوَدُ بالخَير منَ الرّيح المُرسَلَة»[1].

ومن أسباب ذلك أن التكليف المشتمل عليه ثقيل لكن تَدبُّره كفيل بالإعانة عليه. ولهذا قال:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾، والمراد: أنه ثقيل على النبي ﷺ، فعن عائشة ﷺ، أنَّها قالَت: «إن كانَ لَيُوحَى إلَى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ عَلَى راحلَته، فَتَضربُ بجرانها»[2]. والجران: باطن العنق. هذا قول. وقيل: العمل به ثقيل. وقيل: ثقيل في الميزان[3]. وكل ذلك له وجه.

ثم قال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾، قال ابن تيمية ﷺ: «وَناشئَةُ اللَّيل في أَصَحّ القَولَين: إنَّما تَكُونُ بَعدَ النَّوم. يُقالُ نَشَأَ إذا قامَ بَعدَ النَّوم؛ فَإذا قامَ بَعدَ النَّوم كانَت مُواطَأَةُ قَلبه للسانه أَشَدَّ؛ لعَدَم ما يَشغَلُ القَلبَ، وَزَوال أَثَر حَرَكَة النَّهار بالنَّوم، وَكانَ قَولُهُ أَقوَمُ»[4]، وكان أقدر على تدبر القرآن والنظر في معانيه والتأثر به.

ولهذا تجد من نفسك أنك تفهم من قراءة الإمام في الفجر ما لا تفهمه في المغرب أو العشاء؛ لأن المغرب والعشاء يكونان بعد جهد وعمل، فيكون القلب مكدودًا كالبدن، والقلب جزء من البدن يتأثر بما يصيب البدن أحيانًا، لكن في الليل وبخاصة في آخر الليل أو صلاة الفجر يتفتّح القلب ويتفكّر.

---

(١) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٢) أحمد (٢٤٨٦٨)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ.
(٣) ينظر: زاد المسير (٤/٣٥٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٩٥).

وقُرئَ هذا الحرف ﴿وَطْئًا﴾، و﴿وِطَاءً﴾. والفرق بينهما أنه بالفتح يدل على التثبيت والترسيخ، كأنك وطأتَ الشيء فثبته، فعلى هذا يكون المعنى أشد وقعًا على القلب، وقراءة الكسر تعني مواطئة القلب للسان، فيكون المقصود متقاربًا.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي هي أقوم، وأضبط وأعدل، تقول: أقم قراءتك، أي: صوّبها وصحّحها.

ومنه يُعلم ـ وهذه فائدة للحفاظ ـ أن أفضل أوقات الحفظ ما كان عقب راحة، وبخاصة في الليل، وليس من المناسب أن يجعل الراغب في الحفظ وقته الذي يكون فيه مجهدًا لذلك، واختيار الأوقات يوفر جهدًا كبيرًا لمن يرغب في إتقان حفظ القرآن.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾؛ أي تقلُّبًا في مهماتك وحوائجك وشغلًا بها، وتأمل في تقسيم الأوقات في هذه السورة العظيمة، فوقت للراحة والعبادة، ووقت لطلب الرزق وقضاء الحوائج، «قالَ عَبدُ الرَّحمَن بنُ زَيد بن أَسلَمَ في قَوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾، قال: لحَوائجكَ، فَأفرغ لدينكَ اللَّيلَ. قالَ: وَهَذا حينَ كانَت صَلاةُ اللَّيل فَريضَةً، ثُمَّ إنَّ اللهَ مَنَّ عَلَى العباد فَخَفَّفَها وَوَضَعَها»[1].

وفي هذا دليل على عدم إهمال أمور الدنيا، وفي القرآن: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، فالسعي على الوالدين والولد والأهل عبادة، وأن يذر الإنسان ورثته أغنياء خير له من أن يذرهم عالة يتكففون الناس.

ثم قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾، وانظر إلى واقع كثير من الناس اليوم، تجده إذا انقضت الصلاة لم يمكث للتسبيح بعدها، ويكون هذا ديدنه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٢).

فما أن يسلم حتى ينصرف، فمتى يتأتى لمن كان هذا حاله أن يكثر من ذكر ربه؟

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، أي انقطع لعبادته، فالمطلوب من العبد أن يُكثر من ذكر ربه، وينقطع إليه[1].

ولكثرة ذكره سبحانه شأن في الإعانة على حوائج الدنيا والدين، ولهذا أمر نبينا ﷺ بذلك في غير ما آية، قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان].

وما أكثر ما يذكر الإكثار من ذكر الله تعالى مع الأمر أو الترغيب في ذكر ربنا!

قال ربنا لزكريا ﷺ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

وقال عن الكليم ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه].

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٥).

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران ١٩١].

فليس الشأن أن تذكر ربك، وإنما الشأن أن تكثر من ذلك، وهذا هو الفرق بين المنافق والمؤمن، فالمنافق يذكر الله، لكنه مُقلّ منه، ولا يريد به وجهه، أما المؤمن فيكثر منه، ويريد بعمله كله وجه الله، قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

وهذا ما أكد عليه نبينا ﷺ، فعَن ابن عَبّاس رَضي الله تعالَى عَنهما، أنّ رَسُولَ الله ﷺ، قالَ: «**مَن عَجزَ منكُم عَن العَدُوّ أن يجاهدَهُ، وَعَن اللّيل أن يكابدَهُ، فَليُكثر ذكرَ الله**»(١).

وثبت عَن عَبد الله بن بُسر رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسُولَ الله إنّ شَرائعَ الإسلام قَد كَثُرَت عَلَيَّ، فَأَخبرني بشَيء أَتَشَبَّثُ به، قالَ: «**لا يَزالُ لسانُكَ رَطبًا من ذكر الله**»(٢).

---

(١) الطبراني في الكبير (١١١٢١)، وقال الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (١٤٩٦): «صحيح لغيره».
(٢) الترمذي (٣٣٧٥)، وهو في صحيح الترغيب (١٤٩١).

ومن ذلك ما جاء عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أنه قال: كانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسيرُ في طَريق مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَل يُقالُ لَهُ جُمدانُ، فَقالَ: «**سيرُوا، هَذا جُمدانُ. سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**». قالُوا: وَما المُفَرِّدُونَ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**الذّاكِرُونَ الله كَثيرًا والذّاكِراتُ**»(١). قال المناوي ﷺ: «أي: المنفردون المعتزلون عن الناس، من فرد إذا اعتزل وتخلى للعبادة»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾، وفي آية أخرى قال ربنا: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن]، وفي ثالثة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج]. ولا تعارض بين هذه الآيات، فالمشرق بالإفراد مكان شروق الشمس، والمغرب مكان غروبها، والمراد بالتثنية: مشرق الصيف والشتاء، ومغرب الصيف والشتاء، وفي انتقال الشمس من مشرق الصيف إلى مشرق الشتاء تطلع بمطالع كثيرة، فهذه هي المشارق.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾، أي: توكل على المستحق للعبادة سبحانه، والتلازم بين التوكل وإفراد الله بالعبادة مذكور في مواضع، منها: قول ربنا: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، وأعظم الناس توكلًا أكملهم توحيدًا؛ فهؤلاء أقلهم التفاتًا إلى الخلق واعتمادًا على الأسباب.

ثم قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾، فمع التوكل لا بُدَّ للعامل ولاسيما الداعية إلى الله من الصبر، قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان].

---

(١) مسلم (٢٦٧٦).
(٢) فيض القدير (٤/١٢٢).

ومـن أنـواع الصـبر: الصـبر على طاعـة الله، ويدخل في ذلـك الصبر على تبليغ ديـن الله تعـالى. وأمـا تحمُّل مـا يكـون مـن بعض النـاس إذا نصح فهـذا من الصبر على البلاء.

وقـد ابتـلي الرسـل في سـاحات الدعـوة كثـيرًا، قـال ربنـا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام].

وقيـل لنبيّنـا ﷺ كثير مـن الباطـل، اتهـم بالجنـون، والكـذب، وبأنـه شـاعر، وقيـل: كاهن وسـاحر.

وهكـذا حـال مـن سـلك سـبيله، فمـا يقـع الآن في كثير مـن وسـائل الإعلام مـن الاسـتهزاء بـالدعاة والمصلحين سـنة جارية، والواجـب العمل بما أرشـدت إليه هـذه الآيـة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

وبعـض الدعاة وطـلاب العلـم يصبر على النـاس ويتحمـل منهم، وقـد يؤذونه وهـو يبتسـم، لكنـه إذا انفـرد عنهم اشـتكى، ووقـع في أعراضهم مع أصدقائـه! فهذا في الحقيقـة لـم يسـلم، وفي صـبره دَخَـن، وهـذه مسـألة دقيقـة تجـب العنايـة بهـا؛ فالسـلامة لا يعدلهُـا شيء.

والهجـر الجميـل: الذي لا عتـابَ معـه[1]. أو مـا لا إسـاءة فيـه، وبعـض الناس يهجـر مسـلمًا أو قريبًـا ويكـون هجـره سـيئًا! وقـد نهينـا عـن الهجـر، فقـد قال نبينـا ﷺ: «لاَ يَحِـلُّ لمُسـلم أن يَهجُـرَ أخـاهُ فـوقَ ثَلاَثَـة أَيّـام»[2]، والهجـر المـشروع له ضوبطـه، وليـس كل هجـر مـشروعًا، وحـال هجـر أكـثر النـاس اليـوم داخل في القسـم المنـهي عنه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦).
(٢) البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾، وفي هذا التهديد رسالة لنبينا ﷺ، أن لا تشغل بالك بهؤلاء، ولا تأبه لهم.

فالداعية العاقل لا يلتفت إلى المسيئين إليه، ولا ينشغل بهم عن دعوته، ومن النادر أن ينشغل أحد بالرد على خصومه ويسلم من حظ النفس! ولنا في أنبياء الله تعالى أسوة، قال ربنا عن موسى ﷺ وفرعون: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء]، فلم ينتصر لنفسه، ولم تلفته إساءته له عن دعوته.

فالداعية إذا صدق مع الله وكانت دعوته إليه لا إلى نفسه، أو حزبه، أو جماعته، فلا بُدَّ أن يتولى الله تعالى الدفاع عنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

ثم إن الخصوم إذا وجدوك تتوقف وتلتفت إليهم كلما تكلموا فيك، تلاعبوا بك لإيقاف دعوتك، وتحقق مقصودهم، وفي آداب القرآن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان].

ثم أخبر ﷻ أن الصبر عليهم لا يعني أن الله ﷻ لن يحاسبهم، فقال: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾، وهذا كقوله: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمان].

الآيات (١٢ ـ ١٩)

إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

لما ذكر إمهالَ المكذبين إلى أجل توعَّدهم بما هم لاقون بعده، فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ فبيَّن ربنا ما ينتظرهم من العذاب، ﴿أَنكَالًا﴾: قيودًا، ﴿وَجَحِيمًا﴾: سعيرًا، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان].

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس ﷺ: «يَنشَبُ في الحلق فلا يَدخُلُ وَلا يَخرُجُ»[1]. وهذا يرشد إلى شكر نعمة الطعام الذي جعله الله لنا هنيئا مريئًا، فهيأ مجراه، ويسر استقراره في جوف آكله.

وأعد الله لهم عذابًا أليما موجعًا، وأنجع سبيل للنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة: الاستغفار، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦).

ثـم زاد مـن هـول العذاب تهويـل إرهاصاتـه بتهويل يـوم القيامـة فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾، والرجفـة الزلزلـة، قـال ربنـا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة]. و﴿كَثِيبًا﴾: رملًا. و﴿مَّهِيلًا﴾: إذا أخـذت منه شـيئًا تبعـه ما بعده، «يُقـالُ: أَهَلـتُ الرَّملَ أُهيلُـهُ هَيلًا إذا حَرَّكـتُ أَسـفَلَهُ حَـتَّى انهالَ من أَعـلاهُ»(١).

ولما ذكر عذاب الآخرة وقدمه لكونه أشد من عذاب الدنيا، عاد فنبَّه إلى أنهم ليسوا بمنأى عن الأخذ في الدنيا والعذاب فيها أيضًا، وضرب لهم مثلًا بمن هو أشد منهم قوة، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، شاهدًا بالتبليغ، كما قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾، وهـذا خـبر يتضمـن تهديـدًا للمشركـين المأمـور بالصبر عليهـم، وتحذيـرًا لهـم مـن انتهـاء المهلـة في الدنيـا، وفيـه أيضـا رسـالة تتوجـه إلى كافـة مـن بعـث إليهـم ﷺ، ألا تعصـوا رسـولكم؛ لئـلا يصيبكـم مـا أصـاب فرعـون الذي عـصى رسـوله، كمـا قـال سـبحانه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر]. و﴿وَبِيلًا﴾: شـديدًا.

وفي هـذا مـن الهدايات: أن المعاصي سـبب للهـلاك، ونزول العذاب. قـال ربنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ

---

(١) تفسير البغوي (٨/٢٥٦).

وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾، أي: كيف تتقون عذابَ يوم القيامة إذا كفرتم؟ وهو يوم لهوله تشيب الولدان! ولا أمنَ لكافر في الآخرة، قال ربنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام].

قال نبينا ﷺ: «**يُقالُ: أَخرجُوا بَعثَ النّار، فَيُقالُ: من كَم؟ فَيُقالُ: من كُلّ ألف تسعَمائَة وَتسعَةً وَتسعينَ**، قال: «**فَذاكَ يَومَ يَجعَلُ الولدانَ شيبًا**»[1]. نسأل الله السلامة والعافية.

وليس المقصود من الآية أن ذلك يقع في الدنيا، فبعض الناس ينشر صورا لأطفال شاب شعر رأسهم ويورد هذه الآية! وكثير مما ينشر من مثل هذا كذب لا حقيقة له، والمقصود أن ذلك يقع في القيامة.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾، وانشقاق هذا المخلوق العظيم دليل على عظيم شدة هذا اليوم، فالعاقل من سعى ليكون من الآمنين فيه من عذاب ربه سبحانه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾، المراد بها: القرآن الكريم، والآية دليل على أن الله جعل للإنسان قدرة واختيارًا، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان]. وفي سورة الإنسان كذلك: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان].

---

(١) مسلم (٢٩٤٠).

آخر آية في السورة



﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾



هـذا تخفيـف مـن الله ﷻ لعبـاده في أمـر قيـام الليـل، فإنـه بـنزول هـذه الآية صـار مسـتحبًا بعدمـا كان واجبًـا. قـال نبينـا ﷺ: «لِيُصَلِّ أَحَدُكُم نَشَاطَهُ»[1].

ومـن هدايـات الآيـة: أنـه لا ينبـغي أبـدًا أن يفـرط المؤمـن في تـلاوة كتـاب الله؛ فإنـه قـال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، فقـد ذكـر مـا يشـغل الناس، من السـفر للتجـارة، والمـرض، والجهـاد، ولـم يجعل شـيئًا من ذلك مانعًـا من تـلاوة القرآن، بل قـال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

ولقـد أدركتُ مشـايخ لنا في الجامعـة، كان أحدهـم إذا كان في الامتحان يراقب الطـلاب لا يفـتر مـن قـراءة القـرآن، وأذكـر أن أحـد المشـايخ كان عنـده موعـد

(١) البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

فتأخـر، فقلـتُ له: أخـروك عـن موعدك، وأضاعـوا وقتك! قـال: الذي معـه القرآن لا يضيـع وقته.

وهكـذا على المسـلم أن يكـون له في القـرآن شـغل، مـع إقامـة الصـلاة وإيتاء الـزكاة المفروضـة ثـم الصدقـة، وليعلـم أنـه إذا قـام بذلـك فإنمـا يقدم لنفسـه، وما قـدم من خـير وجـده عنـد الله تعالى.

وحـتى لا يغـتر من سـعى في تحقيـق ذلـك قـال بنـا: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فالعمل لا بُـدَّ أن يشـوبه نقـص، والله غفور يغفـر لمن اسـتغفره، وهو مع ذلك رحيـم، وفي ذلك إشـارة إلى أن مـن وفـق لمـا تقدم فإنمـا هو بفضلـه ورحمته ﷻ.



بين يدي سورة المدثر

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

لا تعرف إلا بهذا الاسم؛ «﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكلمها مئتان وخمس وخمسون كلمة، وحروفها ألف وعشرة أحرف، وهي خمسون وخمس آيات في المدني الأخير والمكي والشامي وست في عدد الباقين، اختلافهما آيتان؛ ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون، ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، لم يعدها المكي والشامي وعدها الباقون، وفيها مما يشبه الفواصل موضعان؛ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿بِهَٰذَا مَثَلًا﴾»[٢].

سبب نزولها:

عن جابر بن عَبد الله الأَنصاريِّ ﷺ، قالَ: قال رسول الله ﷺ ـ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَن فَترَة الوَحي ـ: «بَينا أَنا أَمشي إذ سَمعتُ صَوتًا منَ السَّماء، فَرَفَعتُ بَصَري،

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٩١).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٨).

فَـإذا المَلَـكُ الَّذي جـاءَني بحـراء جالـس عَلَى كُـرسيّ بَـينَ السَّـماء والأَرض، فَرُعبتُ منـهُ، فَرَجَعـتُ فَقُلـتُ: زَمّلُـوني زَمّلُـوني، فَأَنـزَلَ الله تَعـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾، فَحَـمِيَ الـوَحيُ وَتَتابَـعَ»[1].

موضوعاتها:

«تكريم النبي ﷺ.

الأمر بإبلاغ دعوة الرسالة.

إعلان وحدانية الله بالإلهية.

الأمـر بالتطهـر الحـسي والمعنـوي، ونبـذ الأصنـام، والإكثـار مـن الصدقـات، والأمـر بالصبر.

إنـذار المشركـين بهـول البعـث، وتهديد من تصـدى للطعـن في القـرآن وزعم أنـه قـول البشر.

وصـف أهـوال جهنـم، والـرد على المشركـين الذيـن اسـتخفوا بهـا وزعمـوا قلة عـدد حفظتهـا، وتحـدي أهل الكتـاب بأنهم جهلـوا عـدد حفظتها، وتأييسـهم من التخلـص مـن العـذاب، وتمثيـل ضلالهم في الدنيـا، ومقابلـة حالهم بحـال المؤمنين أهـل الصلاة والـزكاة والتصديـق بيوم الجـزاء»[2].

مقصدها:

تثبيـت قلـب نبينـا ﷺ، والحث على الإيمـان بما أنـزل الله واليوم الآخـر ببيان حـال المكذبين بهمـا في الآخرة.

---

(١) البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٢٩٣).

سورة المدثر: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾، هذا تلطُّف في خطاب نبينا ﷺ، والنداء اللطيف عند التكليف يحمل على القيام بما يشتمل عليه من الأمر على أتم وجه.

وقد جاءَ رَسُولُ الله ﷺ بيتَ فاطمَةَ ، فلَم يجد عَليًّا في البيت، فقالَ: «**أَينَ ابنُ عمّك؟**»، فقالَت: كانَ بَيني وَبَينَهُ شَيء، فَغاضَبَني فَخَرَجَ، فلَم يَقل عندي، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ لإنسان: «**انظر أينَ هُوَ؟**»، فجاءَ فقالَ: يا رَسُولَ الله هُوَ في المَسجد راقد، فَجاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُضطَجع، قَد سَقَطَ رداؤُهُ عَن شقّه، فَأَصابَهُ تُراب، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يمسَحُهُ عَنهُ وَيَقُولُ: «**قُم أَبا التُّراب قُم أَبا التُّراب**»[1]. وهذا تلطُّف في خطاب أصحابه.

ومن تأمَّل القرآن وجد أن الله تعالى لم يناد نبيه باسمه قط، فناداه له بهذا، وبيا أيها المزمل، ويا أيها النبي، ويا أيها الرسول.

وهذه السورة تجد فيها ـ ككثير من سور القرآن ـ فواصل متشابهة، وهذه لها وقع في القلب، واختلف هل تسمى سجعًا أو لا؟ وذلك لأن السجع في العادة

---

(١) البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩).

مُتكلَّف تُحمل المعاني عليه، بخلاف الفواصل فلا يتكلف حمل المعاني عليها، والسجع إذا جاء بدون تكلف، فلا شيء فيه، أما تكلُّفُه فلا يُحمد، ولا سيما إذا كان في الدعاء، فعَن عكرمَةَ، عَن ابن عَبّاس ﷺ أنه قالَ له: «انظُر السَّجعَ مِنَ الدُّعاء فاجتَنبهُ؛ فَإنِّي عَهدتُ رَسُولَ الله ﷺ وَأَصحابَهُ لا يَفعَلُونَ إلّا ذَلكَ»[١]. يَعني: لاَ يَفعَلُونَ إلّا ذَلكَ الاجتنابَ. قال القرطبي ﷺ - وهو يتكلم عن أنواع الاعتداء في الدعاء -: «وَمنها أَن يَدعُوَ بما لَيسَ في الكتاب والسُّنَّة، فَيَتَخَيَّرُ أَلفاظًا مُفَقَّرَةً، وَكَلمات مُسَجَّعَةً، قَد وَجَدَها في كَراريسَ لا أَصلَ لَهَا، وَلا مُعَوَّلَ عَلَيها، فَيَجعَلُها شعارَهُ، وَيَترُكُ ما دَعا به رَسُولُهُ ﷺ؛ وَكُلُّ هَذا يَمنَعُ من استجابَة الدُّعاء»[٢].

وقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، لم يقل: قم فبشّر، مع أن هذا القرآن بشارة ونذارة، وتُقدَّم البشارة كثيرًا، لكن لأن هذه السورة من أول ما نزل، وكان حال الناس لا يخفى من سيادة الشرك في مجتمعاتهم، فاحتيج للبدء بها، ومنها يُعلم أنه لا بُدَّ أن يُراعى حال الناس، فلا يناسب البداءة بتبشير قوم منغمسين في الآثام، بل اللائق البداءة بإنذارهم.

والمعنى: قم من فراشك، وابدأ بدعوة الناس إلى الله ربهم، وفي هذا إشارة إلى التخلي عن كثير من متع الدنيا لأجل الدعوة إلى الله؛ فلا يصدنَّك عنها فراش وثير، بل لا بُدَّ أن تكون على حساب بعض إجمام البدن.

وفيها أيضًا إشارة إلى الترغيب في إيثار محابّ الله على الدعة والراحة مطلقًا، فالمُتدثّر بلحافه في فراشه إذا حان وقت الصلاة قام منه مُؤثرًا الاستجابة لأمر الله على نومه وراحته، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ [السجدة].

---

(١) البخاري (٦٣٣٧).
(٢) تفسير القرطبي (٧/٢٢٦).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، أي: عظّم ربك تعظيمًا لا نهاية له(١)، فهو الكبير العظيم ﷻ.

قال الشنقيطي ﵀ في أضوائه: «أي عظّمه تعظيمًا شديدًا، ويظهر تعظيم الله في شدّة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه والمسارعة إلى كلّ ما يرضيه»(٢).

قال ربنا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج: ٣٧].

قال ابن تيمية ﵀: «ولهذا كان شعائرُ الصلاة والأذان والأعياد والأماكن العالية هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ، ولم يجئ في شيء من الأثر بدل قول الله أكبر: الله أعظم، ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال: الله أعظم لم تنعقد به الصلاة؛ لقول النبي ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**(٣)»»(٤).

ويذكر ﵀ معناها فيقول: «التكبير يُراد به أن يكون الله عند العبد أكبر من كلّ شيء، كما قال ﷺ لعديّ بن حاتم: «**يا عديّ ما يُفرُّك؟ أيُفرُّك أن يُقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلّا الله؟ يا عديّ ما يفرُّك؟أيُفرُّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل من شيء أكبر من الله؟**»(٥)، وهذا يُبطل قولَ من جعل أكبر بمعنى كبير»(٦).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٩/٢٣).
(٢) أضواء البيان (٦٣٥/٣).
(٣) أبو داود (٦١)، وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (٨/٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١١٢/١٦ ـ ١١٣).
(٥) الترمذي (٢٩٣٥)، وهو في صحيح ابن حبان (٧٢٠٦)، وقوله: «يُفرُّك»، قال في تحفة الأحوذي (٢٧٢/٧): «بضم الياء وكسر الفاء يقال أفررته أفره أي فعلت به ما يفر منه ويهرب، أي ما يحملك على الفرار. وكثير من المحدثين يقولون بفتح الياء وضم الفاء والصحيح الأول»، وانظر: غريب الحديث لأبي عبيد (١٢٤/٣).
(٦) الفتاوى (٢٣٩/٥).

وفي نعت ربنا بذلك بعد الأمر بالدعوة ما يعين عليها، لأنه بتعظيم الله يصغر في النفس كل عائق وعُتُلّ مُتجبّر، فلا يهابه الداعية إذا ملأ قلبه بتعظيم ربه. ومما يُروى عن العز بن عبد السلام أنه دخل على بعض الملوك الطغاة، وكلّمه بكلام شديد، فلما مضى قال له الناس: أما خفت يا إمام، فقال: تصورت عظمة الله، فأصبح عندي كالهر. فلا بُدّ للداعية من تعظيم الله تعالى، وأن يعلم أن طريق الدعوة محفوف بالمخاطر، فإذا لم يتهيأ لها فإنه يتراجع، قال ربنا: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝٢١٤﴾ [البقرة].

وأعظم ما يملأ القلب بعظمة الله تعالى: تَعلُّم أسماء الله تعالى وصفاته، والتعرُّف عليه سبحانه.

ثم قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾، قيل المراد: ونفسك فطهر من الذنوب، وقيل: وعملك فأصلح، وقيل: المراد تطهير الثوب من القاذورات، والآية تشمل ذلك كله[1].

فلا بُدّ لمن أراد هداية قومه أن يكون على طهارة عظيمة من الذنوب، وإلا لما كان لكلامه أثر، قال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

وقوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾، في الرجز أقوال؛ قيل: الأصنام، والإثم، والشرك، والذنب، والعذاب، وكل ذلك رجز، فيكون المعنى على هذا: اهجر ما يؤدّي إلى

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير (٨/٢٦٣).

عذاب الله ويسبب سخطه(١).

ومن تأمل في هذه الأقوال لم يجد تعارضًا بينها، فالشرك أعظم إثم، والشيطان يدعو إلى معصية الله، فمن اجتنب الشيطان فقد تجنَّب معصية الله، ونأى بنفسه عن أسباب عذابه.

وقد عصم الله تعالى نبيَّه ﷺ فلم يعبد غير الله قطُّ، وعصمه من الفواحش والمنكرات وسيء الأخلاق، وعُرف بين قومه بمكارم الأخلاق، ولُقّب قبل البعثة بالصادق الأمين، قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي لما هاجروا إلى الحبشة: «أَيُّها المَلكُ، كُنّا قومًا أَهلَ جاهليَّة نَعبُدُ الأَصنامَ، وَنأكُلُ المَيتَةَ وَنأتي الفَواحشَ، وَنَقطَعُ الأَرحامَ، وَنُسيءُ الجوارَ يأكُلُ القَويُّ منّا الضَّعيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَينا رَسُولًا منّا نعرفُ نَسَبَهُ، وَصدقَهُ، وَأَمانَتَهُ، وَعَفافَهُ، فَدَعانا إِلَى الله لنُوَحّدَهُ، وَنَعبُدَهُ، وَنَخلَعَ ما كُنّا نَعبُدُ نَحنُ وَآباؤُنا من دُونه منَ الحجارَة والأَوثان، وَأَمَرَنا بصدق الحَديث، وَأَداء الأَمانَة، وَصلَة الرَّحم، وَحُسن الجوار، والكَفِّ عَن المَحارم، والدماء، وَنَهانا عَن الفَواحش، وَقَول الزُّور، وَأَكل مالَ اليَتيم، وَقَذف المُحصَنَة، وَأَمَرَنا أَن نَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ لا نُشركُ به شَيئًا، وَأَمَرَنا بالصَّلاة، والزَّكاة، والصّيام»(٢).

فإن قيل: إذا طهَّر الله تعالى نبيه من ذلك كله قبل بعثته فلمَ يأمره باجتنابها وهو مُنزَّه عنها؟

فالجواب: هذا كقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، فخطاب الله تعالى له خطاب لأمته، قال ربنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فالنداء للنبي ﷺ، والخطاب لأمته.

---

(١) ينظر: زاد المسير (٣٦٠/٤).
(٢) أحمد (٢٦٦/٣)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في حاشيته عليه.

وقوله: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾، والمراد: لا تمنن على ربك بأعمالك تستكثرها[1].

قال ربنا: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات].

فالمن يبطل العمل، قال ربنا: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

فالله تعالى لا يقبل الصدقة التي تُتبَع بالمن، ومما ذكره العلماء: أن الماء الذي ستتوضأ به إذا وجد عند منان فإن تيممك بالتراب صحيح مجزئ؛ لئلا تأخذ شيئًا ممن يمن به عليك.

إن بعض الناس قد يتصدق بكثير من أمواله على الفقراء والمحتاجين، ولكنه يقع في خطيئة المن! والله يقول: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان].

وللعرب في جاهليتهم حكمة بديعة يقولون: «إحياء المعروف بإماتته»، يعني إذا قدّمت معروفًا لأحد فامحُهُ من ذاكرتك ولا تذكره؛ ليبقى خيره وأجره.

وبعض الناس يمُنُّ على أولاده، وبعض الناس يمُنُّ على زوجته، وفي المقابل أعرف بعض الموسرين يقول لأولاده وهو يغدق عليهم في العطاء: إنما أعطيتكم من أجلي؛ أي: حتى أسعد بهذا العطاء، فأعطيكم لمصلحة نفسي، وهذا بعيد عن المنّ وهو من حسن الخلق.

ومن المعاني البديعة التي تتعلق بهذا: أن من توسَّل بطاعة فعليه أن يجتهد في منع نفسه من الإعجاب بها، وذلك بالعلم بأن الله تعالى هو الذي وفق إليها،

---

(١) يراجع تفسير ابن كثير (٨/٢٦٤).

﴿وَقَالُوا۟ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. والأفضل أن يقول: اللَّهُمَّ بما هديتني إليه من الخير والصلاة - مثلًا - حقق لي كذا وكذا.

بعض الناس يقول: أنا أقوم بفرائض الله وهذا يكفي! وفي هذا نوعُ منَ على الله تعالى، وبعضهم يقع في ذلك ويستدل بحديث الأعرابي الذي رواه طلحة بن عُبَيد الله ﷺ: جاءَ رَجُل إلَى رَسُول الله ﷺ من أهل نَجد ثائرَ الرَّأس، يُسمَعُ دَوِيُّ صَوته وَلاَ يُفقَهُ ما يَقُولُ، حَتَّى دَنا، فَإذا هُوَ يَسأَلُ عَن الإسلاَم، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَمسُ صَلَوات في اليَوم واللَّيلَة**». فَقالَ: هَل عَلَيَّ غَيرُها؟ قالَ: «**لاَ، إلَّا أَن تَطَوَّعَ**». قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَصيامُ رَمَضانَ**». قالَ: هَل عَلَيَّ غَيرُهُ؟ قالَ: «**لاَ، إلَّا أَن تَطَوَّعَ**». قالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ الزَّكاةَ، قالَ: هَل عَلَيَّ غَيرُها؟ قالَ: «**لاَ، إلَّا أَن تَطَوَّعَ**». قالَ: فَأَدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: والله لاَ أَزيدُ عَلَى هَذا وَلاَ أَنقُصُ، قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَفلَحَ إن صَدَقَ**»[1]. والسؤال: قال الأعرابي: لا أزيد، ولا أنقص، فمَن يضمن لك أنك صليتَ على الوجه المشروع ولم تنقص منها؟ وقُل مثل ذلك في الواجبات كلها.

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾، تنبيه إلى أن ما تقدم الأمر به يحتاج إلى صبر، وقد جاءت هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ لما بين له ورقة بن نوفل ما سيُفعل به، قالت عائشة ﷺ: «كانَ أَوَّلَ ما بُدئَ به رَسُولُ الله ﷺ الرُّؤيا الصَّادقَةُ في النَّوم، فَكانَ لاَ يَرَى رُؤيا إلَّا جاءَت مثلَ فَلَق الصُّبح، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيه الخَلاَءُ، فَكانَ يَلحَقُ بغار حراء فَيَتَحَنَّثُ فيه اللَّيالِيَ ذَوات العَدَد، قَبلَ أَن يَرجعَ إلَى أَهله وَيَتَزَوَّدُ لذَلكَ، ثُمَّ يَرجعُ إلَى خَديجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بمثلها، حَتَّى فَجئَهُ الحَقُّ وَهُوَ في غار حراء، فَجاءَهُ المَلَكُ، فَقالَ: اقرَأ، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ما أَنا بقارئ**»، قالَ: «**فَأَخَذَني فَغَطَّني حَتَّى بَلَغَ منِّي الجُهدَ، ثُمَّ أَرسَلَني، فَقالَ: اقرَأ، قُلتُ: ما أَنا بقارئ،**

---

(١) البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

فَأَخَـذَني فَغَطَّـني الثَّانيَـةَ حَـتَّى بَلَـغَ مِنّي الجُهـدَ، ثُمَّ أرسَـلَني فَقـالَ: اقـرَأ، قُلتُ: ما أَنـا بقـارئ، فَأَخَـذَني فَغَطَّـني الثَّالثَةَ حَـتَّى بَلَغَ مِـنّي الجُهد، ثُـمَّ أرسَـلَني، فَقالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾ [العلق]»، فَرَجَـعَ بهـا رَسُـولُ الله ﷺ تَرجُفُ بَـوادرُهُ، حَتَّى دَخَـلَ عَلَى خَديجَـةَ، فَقالَ: «زَمّلُـوني زَمّلُـوني»، فزَمَّلُـوهُ، حَـتَّى ذَهَبَ عَنـهُ الرَّوعُ، قـالَ لخَديجَـةَ: «أَي خَديجَةُ، مـا لي لَقَـد خَشـيتُ عَلَى نَفـسي»، فَأَخبَرَها الخَـبَرَ، قالَت خَديجَـةُ: كَلّا، أَبشر، فَوالله لاَ يُخزِيـكَ الله أَبَـدًا، فَـوالله إِنَّـكَ لَتَصلُ الرَّحِـمَ، وَتَصـدُقُ الحَديثَ، وَتَحمـلُ الكَلَّ، وَتَكسـبُ المَعـدُومَ، وَتَقـري الضَّيـفَ، وَتُعـينُ عَلَى نَوائـب الحَـقّ، فانطَلَقَـت بـه خَديجَـةُ حَـتَّى أَتَـت بـه وَرَقَـةَ بـنَ نوفَـل وَهُـوَ ابـنُ عَـمّ خَديجَـةَ أَخي أَبيهـا، وَكانَ امـرَأً تَنَـصَّرَ في الجاهليَّـة، وَكانَ يَكتُـبُ الكتـابَ العَـرَبيَّ، وَيَكتُـبُ مـنَ الإنجيل بالعَرَبيَّـة مـا شـاءَ الله أَن يَكتُبَ، وَكانَ شَـيخًا كَبـيرًا قَد عَميَ، فَقالَـت خَديجَةُ: يا ابـنَ عَمّ، اسـمَع مـنَ ابن أَخيكَ، قـالَ وَرَقَةُ: يـا ابنَ أَخي، مـاذا تَرَى؟ فَأَخـبَرَهُ النَّبيُّ ﷺ خَـبَرَ مـا رَأَى، فَقـالَ وَرَقَـةُ: هَـذا النّامُـوسُ الَّذي أُنـزلَ عَلَى مُـوسَى، لَيتَني فيها جَـذَعًا، لَيتَـني أَكُـونُ حَيًّـا حين يخرجـك قومـك، قـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «أَوَمُخرجيَّ هُـم؟»، قـالَ وَرَقَةُ: نَعَـم، لَم يَأت رَجُـل بما جئـتَ بـه إلّا أُوذيَ، وَإن يُدركني يَومُكَ حَيًّا أَنـصُركَ نَصرًا مُـؤَزَّرًا»[1].

فتهيَّأ نبينا ﷺ بكلام ورقة في صنيع قومه معه، وكانت هذه الآية تسلية له.

وفي الآيـة تقديـم وتأخـير، فالأصـل تقديـم الفعـل وتأخـير المتعلـق مـن الجار والمجـرور، وهـذا يفيد الحـصر، أي: اجعل صـبرك لله وحده لا لـغـيره، وإذا لم يكـن الصبر لله فـلا بُـدَّ أن يضعف الإنسـان، ولا بُدَّ أن يخـرج من دائرتـه؛ لجهد البلاء، أمـا مـا كان لله وبالله فإنـه يبقى.

(١) البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

الآيات (٨ ـ ١٠)

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

بعد إرشاده ﷺ إلى الواجب، ذكر بيوم الجزاء، وفي ذكره شحذ لهمة المتقين، وتخويف للمعاندين المعرضين، فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: فإذا نفخ في الصور، وثبت عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ أنه قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَيفَ أَنعَمُ وَصاحبُ القَرن قَد التَقَمَ القَرنَ وَحَنَى جَبهَتَهُ، يَسمَعُ مَتَى يُؤمَرُ فَيَنفُخُ؟**». فَقالَ أَصحابُ مُحَمَّد ﷺ: فَما نَقُولُ؟ قالَ: «**قُولُوا: حَسبُنا الله وَنعمَ الوَكيلُ، عَلَى الله تَوَكَّلنا**»[١].

وفي الآيات أن يوم القيامة سيكون على الكافرين عسيرًا، غير يسير، فلمَ جمع بينهما ربنا في الذّكر؟ لأنهم قد يرجون اليسر بعد العسر، فجاءت: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ قاطعة لآمالهم. وكم من عسير ييسره الله، فبين الله أنه لن يكون يسيرًا عليهم.

في حلية الأولياء[٢]، عَن زُرارة بن أَوفَى ـ قاضي البَصرة ـ: أَنَّهُ صَلَّى بهمُ الصُّبحَ، فَقَرَأَ هَذه السُّورَةَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ شَهقَ شَهقَةً، ثُمَّ خَرَّ مَيِّتًا، رحمه الله.

---

(١) أحمد (٣٠٠٨)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه: حسن لغيره.
(٢) (٢/٢٥٨ ـ ٢٥٩).

الآيات (١١ ـ ٣١)

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

بعد تهويل يوم القيامة بما يدعو للاستعداد له، ذكر حال بعض من أعرض واستكبر فيه، فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، أي أنَّ الله خلقه وحده لم يشاركه في خلقه أحد، أو خلقته وحيدًا، خرج من بطن أمه ولا شيءَ معه. وهذه نزلت في الوليد بن المغيرة.

وتدل هذه الآيات على أن في إيقاع النكال برؤوس الكفر عبرًا، فأبو جهل

رأس من رؤوس الكفر، جاء فيه قول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان][1]، وضرب الكبار ضرب لأتباعهم في الدنيا، ولذلك تجد في الحرب أن القادة مستهدفون.

وقد نزلت هذه الآيات في ذلك الكافر العنيد الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة، أعطاه مالًا وفيرًا، وولدًا كثيرًا، وجعل ولده عنده لا يغيبون عنه، ومكّنه الله من صنوف المال والنعم، فلما كفر كان الوعيد من الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾، «قالَ قَتادَةُ: عَذابًا لا راحَةَ فيه»[2].

ولو أن إنسانًا هدد إنسانًا وهو يعلم أنه قادر على إنفاذ وعيده لامتلأ قلبه رعبًا، فكيف بالله تعالى القوي الذي لا يغالب.

وفي الآيات مسألة تربوية تتعلق ببر الوالد، فإن الله تعالى ذكر أن مما أنعم به على الوليد: شهود بنيه، فمما يَفرح الوالد به: أن يجد أبناءه معه، لا سيما في المناسبات العامة، فمن بر الابن بأبيه أن يكون معه، يجده متى ما احتاج إليه، وإني لأتعجب ممن يترك والديه في سن الشيخوخة والمرض وليس لهما سواه، ويسافر لطلب الرزق، وقد أوصد في وجه نفسه أبواب الخير والبركة بسوء صنيعه وتقديره!

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾، قال السعدي ﷺ: «﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: في نفسه، ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولًا يبطل به القرآن. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنه قدر أمرًا ليس في طوره، وتسوَّر على ما لا يناله هو ولا أمثاله، ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ ما يقول، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ في وجهه وظاهره؛ نفرة عن الحق وبغضًا له، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٦٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٦٦).

أي: تـولى، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾، نتيجـة سـعيه الفكـري والعملي والقـولي، أن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، أي: مـا هـذا كلام الله، بـل كلام البشر، وليـس أيضًـا كلام البشر الأخيار، بـل كلام الفجار منهـم والأشرار، من كل كاذب سـحار. فتبًـا له، مـا أبعـده مـن الصـواب! وأحـراه بالخسـارة والتباب! كيـف يدور في الأذهـان، أو يتصـوره ضمير كل إنسـان، أن يكـون أعلى الـكلام وأعظمه، كلام الـرب العظيم، الماجـد الكريم، يشـبه كلام المخلوقين الفقـراء الناقصين؟! أم كيف يتجـرأ هـذا الـكاذب العنيد، على وصفـه هذا لـكلام المبـدئ المعيد»[١].

ونقل لنا ربنا كل ما كان منه، حتى حركة تغير وجهه، ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، أي: قبض ما بين حاجبيه وكلح، كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ﴾ [الحج: ٧٢].

هـذه نتيجـة التفكـير الخاطئ الذي يبـنى على غير أسـاس صحيح، وهـذا بينته بتوسـع في رسالتي «أسـس التفكير».

وإن ألقاك فهمُك في مهاو فليتك ثم ليتك ما فهمتا!

وإنمـا قـال الوليد ذلـك كذبًا وافـتراء، فقد ثبت عَـن عكرمَة، عَن ابـن عَبَّاس رضي الله عنهما، أَنَّ الوَلِيـدَ بـنَ المُغِـيرَة جـاءَ إِلَى النَّـبيِّ ﷺ فَقَـرَأَ عَلَيـه القُـرآنَ، فَكَأَنَّـهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَـغَ ذَلـكَ أَبـا جَهـل، فَأَتـاهُ فَقـالَ: يـا عَـمّ، قُـل فيمـا يدعي محمـد أنه أنـزل عليه قَـولًا يَبلُـغُ قَومَـكَ أَنَّـكَ مُنكـر لَهُ. قـالَ: وَماذا أَقُـولُ؟ فَوالله مـا فيكُم رَجُـل أَعلَمَ بالأَشـعار مـنّي، وَلا أَعلَـمَ برَجَـز وَلا بقَصيـدَة مـنّي، والله إنه مـا يُشـبهُ الَّذي يَقُولُ شَـيئًا مـن هَـذا، وَوالله إنَّ لقَوله الَّذي يَقُـولُ حَـلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيه لَطَـلاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثمر أَعـلاهُ، مُغـدق أَسـفَلُهُ، وَإِنَّـهُ لَيَعلُـو وَما يُعـلَى، وَإِنَّهُ لَيَحطمُ مـا تَحتَهُ. قـالَ: لا يَرضَى

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٨٩٦).

عَنكَ قَومُكَ حَتَّى تَقُولَ فيه. قالَ: فَدَعني حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمّا فَكَّرَ قالَ: هَذا سحر يُؤثَرُ، فَنَزَلَت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر][1].

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾، توعَّده الله تعالى وكل من كفر بما أنزل الله بسقر، ومعنى ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾: «تأكُلُ لُحُومَهُم، وَعُرُوقَهُم، وعَصَبهم، وَجُلُودَهُم، ثُمَّ تُبَدِّلُ غَيرَ ذَلكَ»[2].

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾، عليها تسعة عشر ملكًا، ولا يعارض هذا حديث نبينا ﷺ: «**يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَومَئذ لَهَا سَبعُونَ أَلفَ زمام، مَعَ كُلِّ زمام سَبعُونَ أَلفَ مَلَك يَجُرُّونَهَا**»[3]. فهؤلاء يأتون بها، وخزنتها تسعة عشر كما أخبر ربنا.

وقد نعتهم الله تعالى بالشدة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم].

وهم الزبانية، قال ربنا: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق].

وإنما ذكر الله تعالى هذا العدد فتنةً للناس، فأما أهل الكتاب فهو مذكور في كتبهم فيستدلون به على صدق نبوة نبينا ﷺ وأن القرآن حق، ويزداد المؤمنون إيمانًا، فهو غيب، وكل غيب يذكر لهم يعلنون إيمانهم به فيزدادون إيمانًا، ويعترض على ذكر العدد المنافقون وأصحاب القلوب المريضة، وهذه الفتن سبب لإضلال بعض الناس، وإيمان بعضهم.

فذكر كل الأصناف: الكفار والمنافقين والمؤمنين وأهل الكتاب.

وقول ربنا: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، يدل على أن الأمر كله بيد

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/٥٥٠)، وهو في صحيح السيرة، ص(١٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٦٨).
(٣) مسلم (٢٨٤٢).

الله تعالى، وفي القرآن ما يدلُّ على أن ربنا لا يضل أحدًا ابتداءً، فقد بيَّن سبيلي الخير والشر كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، وبين أن من اختار طريق الخير يثبته الله تعالى، قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]، ومن اختار طريق الغواية زُيّن له، قال ربنا: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم]. وهذا معنى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فهذه آية واحدة ضل بها قوم فكذبوا، وهُدي بها آخرون عظموا البارئ وعرفوا عظمة خلقه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك شامل لجنوده الذين يُعذِّب بهم ويُعاقب، والذين يحرس بهم ويحفظ؛ فنار إبراهيم لم تحرقه، وبحر موسى لم يغرقه، وسكين إسماعيل لم تذبحه، وحوت يونس لم يقتله، عليهم سلام الله.

وقد ذكر عن النمرود أنه مات ببعوضة! وهو الذي ادعى الربوبية!

وفرعون الذي قال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، أجراها الله تعالى من فوقه فهلك.

فالاعتماد على القوة المادية نقص وخلاف الإيمان، صحيح أنا نسعى لتحصيلها، لكن لا تتعلق قلوبنا بها، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران].

الآيات (٣٢ ـ ٥٦)

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

هـذه آيـات كونيـة نبهـت إليها الآيـات الشرعيـة تقـود إلى الإيمان بـالله، فمن منـا يتفكـر فيهـا؟ والإقـلال مـن ذكـر الله تعـالى سـبب للغفلـة عنهـا، قـال ربنا: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمـران].

وقـوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي: يتقـدم فيقبـل النـذارة أو يتأخر فـلا يقبلهـا، وليـس هناك موقف وسـط! فإمـا تقدم إلى الخـير، وإما تأخُّـر إلى الشرّ.

وقـد أثبـت للمُكلَّـف مشـيئة ثـم بـيَّن أنـه مُؤاخَـذ بهـا بعـد جملـة الأقسـام المتقدمـة، فقـال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾، والمعنى: «كل نفس رهـن بكسبها غـير مفكوكـة، ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾ فإنهـم لا يرتهنـون بذنوبهـم، بـل يُفكُّـون بما أحسـنوا من أعمالهـم»[1].

﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ يتحدثـون، يسـألون، ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾، ذكـروا أربعـة أعمـال، وفيهـا دليـل على أن الكفـار مخاطَبـون بفـروع الشريعـة، لكنهـا لا تُقبل منهم إلا بالإسـلام، قال ربنـا: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وقولهـم: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾، أخـذ منهـا العلمـاء أن تـرك الصـلاة كفـر، وأن الكافـر مخاطـب بفـروع الشريعـة، ولا يُقبـل منـه شيء بـلا إيمـان.

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ لـم يحسـنوا في عبـادة الله، ولـم يحسـنوا إلى عبـاد الله. وهـذا يـدل على فضـل إطعـام المسـكين، وإذا غُفـر لبَـغيّ بسـقيا كلـب فكيف بإطعـام جائع؟! وربنا يقـول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء][2]، والآيـة تـدل على أن تـرك بعـض الصدقـة موجب للنار، ولكـن دلت النصوص الأخـرى على أن ذلك ليـس بكفـر، وإنمـا هو تـرك لواجب الـزكاة والبـذل المفروض.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/٣٩٩).

(٢) لي محاضرة تتعلق بهذا، عنوانها: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾، موجودة في التسجيلات.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾، نتكلم فيما لا علم لنا به، ونفتري على الله الكذب.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾، وهو الموت، وإنما كان يقينًا لأنه حقيقة لم يجرؤ أحد على إنكارها.

ودلت الآية على معنى حديث: «**إنَّ الله يَقبَلُ تَوبَةَ العَبد ما لَم يُغرغر**»[1].

ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾، فيها: نفيُ الشفاعة للكافر وإثباتها لغيره، والمقصود الشفاعة في دخول الجنة، فالشفاعات التي وردت النصوص بها كثيرة في الآخرة، وأعظمها الشفاعة العظمى التي خُصَّ بها نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذه شاملة للناس جميعًا.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى مسألة تتعلق بالعقيدة والتوحيد: وهي أن الله تعالى أكرم نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنواع من الشفاعات، لكنَّ الشفاعةَ ملك لله، فلا يَسأل أحد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك، فهذا هو الشرك الأكبر، وإنما يقال: اللَّهُمَّ شفِّع فينا نبيَّك صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قال ربنا: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾، فالمشركون إذا تلي عليهم القرآن كانوا كما ذكر ربنا: ﴿ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ ﴾. والحُمُر تنفر من الأسود بطريقة عجيبة، وهذا تشبيه لحال المشركين مع القرآن! فما أكثر ما يكون المرء سببًا في شقاء نفسه!

وهذه الحُمُر أفضل منهم؛ لأنها فرَّت مما يهلكها، وهؤلاء يفرون مما فيه نجاتهم وسعادتهم، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ولذا جاء فيهم قول الله: ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان].

---

(١) الترمذي (٣٥٣٧)، وهو في صحيح الجامع (١٩٠٠).

والمؤمـن يفـرُّ إلى الله بالإقبـال على كلامه، ولا يفـرُّ منـه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات].

ثـم قال تعـالى مخبرًا عـن آفة كفـر كثـير منهـم: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢﴾، وهي ضرب مـن الاسـتكبار، يريـد أن يُرسَـل إليه رسـول وحده! أو يبعـث هو ويخاطـب بمفرده!

ثـم ذكر علة اسـتكبارهم وإعراضهـم، فقـال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾، فهـم لا يخافونهـا ولا ينظـرون في حجج مـن يُذكّرهـم ويعظهم بها.

وأبلـغ تلـك الحجج القرآن، ولهـذا قـال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾. وأمـر التّذكّـر بـه بيـد المخاطـب؛ فبوسـعه أن يتدبـر، وبوسـعه أن يُعـرض، بوسـعه أن يصـلي، وبوسـعه أن يـترك! ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾، لكـن الموفـق مـن وفقـه الله وفتـح قلبـه للحـق، والمخـذول مـن وكلـه الله إلى اختيـاره، ومشـيئته البائسـة، ونفسـه الأمـارة بالسـوء، ومـن تـزكى فإنما يـتزكى بتوفيق الله تعـالى، الذي هـو أهل لأن يُتّـقى، وأهل لأن يغفـر، وذكـره بهذا الوصف فيه فتح لأبـواب الرجاء، مع الامتنـان. وعلى الداعية أن يفتـح أبـواب الرجـاء للعُصـاة والمعرضين ليعرضهـم إلى منّة الله تعـالى؛ فالمعرض إذا قنـط ازداد حاله سوءً، ألم تر أن من قتل تسـعة وتسـعين نفسًـا لمـا قنّطه الراهب مـن رحمـة الله تمـادى في غيـه وأتـم به المئـة؟! ولمّـا فتح له الآخـر بـاب الرجاء كان سـببًا لهدايتـه، ومن ثـم دخول الجنـة؟[1].

والله أعلم.

---

(١) القصة في صحيح مسلم (٢٦٧٧).

سُورَةُ القِيَامَةِ

بين يدي سورة القيامة

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»، وسورة «﴿لَآ أُقْسِمُ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمهـا مئة وتسـع وَتسـعُونَ كلمة. وحروفها سـتَ مئـة واثنان وَخَمسُـونَ حرفا. وَهي أَربَعُـونَ آيَـة في الكُوفي وتسـع وَثَلاثُونَ في عـدد الباقينَ»[٢].

سبب نزولها:

عَـن ابن عَبَـاس ﵄، في قَـوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، قـال: «كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا نَـزَلَ عَلَيـه جبريـلُ بالـوَحي كانَ ممّـا يُحَرّكُ به لسـانَهُ وَشَـفَتيه فَيَشـتَدُّ عَلَيـه، فَكانَ ذَلـكَ يُعـرَفُ منهُ»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٣٦).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٩).
(٣) البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).

فضلها وما ورد فيها:

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك؟ فقال: سمعته من رسول الله ﷺ[1].

موضوعاتها:

«إثبات البعث.

التذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه.

إثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا، واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء وتكريم أهل السعادة.

التذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة.

الزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة»[2].

مقصدها:

التزهيد في الدنيا، والحمل على الإيمان باليوم الآخر ببيان ما أعده للكافرين فيه.

---

(١) قال الألباني في تمام المنة، ص(١٨٦): «أخرجه أبو داود بسند صحيح عن الرجل، وهو صحابي، وجهالته لا تضر كما هو معروف عند العلماء، ولذلك خرجته في صحيح أبي داود رقم (٨٢٧)».

(٢) التحرير والتنوير (٣٣٧/٢٩) بتصرف يسير.

سورة القيامة: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٦)



﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾

في المراد بـ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ ثلاثة أقوال، سبق ذكرها عند سورة المعارج، عند قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ [المعارج].

ودلت الآيات على أن النفوس ثلاثة:

● النوع الأول: النفس المطمئنة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر]. وهذه هي النفس الواثقة بربها الساكنة إلى ذكره، المطمئنة غير المضطربة، المطردة في بعدها عن المحرمات، وإذا وقعت في شيء يسير من المعاصي تابت وآبت.

● النوع الثاني: النفس اللوّامة. ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾، وهي التي تلوم صاحبها إذا ألَـمَّ بذنب حتى يرعوي ويرجع، لا يطمئن بالذنب ولا يفرح به، بل تؤنّبه النفس عليه.

● النوع الثالث: الأمّارة بالسوء، قال ربنا حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف].

قال شارح الطحاوية ﷺ بعد أن ذكر أنواع النفوس: «والتحقيق: أنها نفس واحدة لها صفات، فهي أمّارة بالسُّوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوّامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة»[١]، لكن من نفوس الناس ما تضعف فيه صفة وتقوى أخرى فتكون غالبة.

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾؛ قد يرد هنا سؤال لماذا نص على العظام؟ لم يقل: ألن نجمع بدنه، ألن نجمع لحمه؟ لأن مَن يُنكرون البعث ينصون دائمًا على ذكرها استبعادًا لإعادتها بعد أن تكون رفاتًا، أما اللحم فهم يرونه ينبت إذا أصيب ومع ذلك لا يعتبرون! قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾﴾ [يس].

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾، والبنان: أطراف الأصابع[٢]. وذكر البنان بعد: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾؛ لأنه البنان فيه دقة تحار العقول أمامها، حتى إنه لا يمكن أن تتشابه بصمة اثنين أبدًا، والقادر على تسوية هذا أقدر على ما فوقه من خلق العظام، والقادر على تسوية البنان قادر على جمع العظام.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾، «عَن ابن عَبّاس: هُوَ الكافرُ يُكَذِّبُ بيَوم الحساب»[٣]، يعيش ليفجر، ولا يبالي استبعادًا منه ليوم الجزاء.

---

(١) شرح الطحاوية، ص(٤٤٥).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/٢٨٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٧٦).

الآيات (٧ ـ ١٥)



يسأل الكافر أيّان يوم القيامة استبعادًا، فيجيء الجواب مصورًا هوله؛ ليدفع العقلاء إلى الإعداد لذلك اليوم أيان كان وقته: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾، وهذا تهديد من جهة، وإجابة عن السؤال من جهة أخرى.

و﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾: حار في أهوال القيامة، فهو يتنقل من مشاهدة هول إلى هول آخر.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾: ذهب ضوؤه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾: كُوِّرا.

وفي الجواب تنبيه بالإجابة عن سؤال: متى الساعة؟ بذكر علاماتها، وهذا السؤال قد يقع من أطفالنا.

وفيه أيضًا: الإجابة بما ينتفعون به ولو لم تكن إجابة مباشرة، كما في الصحيحين، عَن أَنَس ﷺ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَن السَّاعَة، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذا أَعددتَ لَهَا؟». قَالَ: لاَ شَيءَ، إِلَا أَنِّي أُحبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ،

فقَالَ: «أَنتَ مَعَ مَن أَحبَبتَ». قالَ أَنَس: فَما فَرِحنا بِشَيء، فَرَحَنا بقَول النَّبيِّ ﷺ: «أَنتَ مَعَ مَن أَحبَبتَ»؛ قالَ أَنَس: «فَأَنا أُحبُّ النَّبيَّ ﷺ وَأَبا بَكر، وَعُمَرَ، وَأَرجُو أَن أَكُونَ مَعَهُم بحُبِّي إِيَّاهُم، وَإِن لَم أَعمَل بمِثل أَعمالهم»(١).

ومن هدايات هذه الآيات: أنه لا يلزم أحيانًا إذا سألك سائل أن تجيب عما سأل، قد يكون من الحكمة أحيانًا ألا تجيبه، أو تصرف الجواب إلى ما ينفعه، وفيه كذلك أن تميز بين السائلين في الإجابة، ففي آيات أخرى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فبحسب حال السائل وغرضه من السؤال يكون الجواب، وليس بالضرورة محاكمته إلى ألفاظه إن علم من الحال غرضًا آخر.

والمقصود إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال قال: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠﴾؟ قال الله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾، أي لا نجاة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾: المَرجعُ والمَصيرُ(٢).

وفي قوله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾، إشعار بأن موضع القرار مبنيّ على العمل المنبأ به إن كان صالحًا قدمه لنفسه فالجنة، وإن كان سيئًا فبئس القرار.

هذه معان عظيمة. وما أجمل قول أبي العتاهية:

مَثّل لقلبكَ أَيُّها المغرور
يَومَ القيامَة والسَّماءُ تَمُور
قد كُوِّرَت شَمسُ النَّهار وَأُدنيَت
حَتَّى عَلَى رَأس العباد تَسير
وَإِذا الجبالُ تَقَلَّعَت بأُصولها
فَرَأَيتَها مثلَ السَّحاب تَسير
وَإِذا العشارُ تَعَطَّلَت عن أهلها
خلت الدّيار فَما بها مَعمُور

(١) البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٢٧٧).

وَإذا النُّجُومُ تَساقَطت وَتَناثَرَت
وَتَبَدَّلَت بَعدَ الضّياء كُـــدُور

وَإذا الجنــــينُ بأُمّه مُتَعَلّق
يومَ الحساب وَقَلبُهُ مَذعُــــور

هَذا بلا ذَنب يَخاف لهَــوله
كَيفَ المُصرُّ عَلَى الذُّنوب دُهُور

فيوم القيامة يوم عظيم، ونعت بذلك لأسباب، منها:

(١) عظـم أهـواله، قـال ربنـا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج].

(٢) ولأن الله يعـذب الكافريـن فيـه عذابًـا عظيمًـا، قـال ربنـا: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة].

(٣) ولأن الله يعطـي فيـه المؤمنـين أجـرًا عظيمًـا، قال سـبحانه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾ [آل عمران].

ثم قال تعالى: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾، عالم بعيوب نفسـه ولـو قـدم الأعذار لهـا! فـإذا كان كل منا بصـيرًا بعيوب نفسـه، وغدراتـه، وفجراته، وزلاتـه، فلـم الانشـغال بعيـوب اللآخريـن؟! هـذا مـن الخـذلان عيـاذًا بـالله. قال بكـر بـن عبـد الله: «إذا رأيتـم الرجل مـوكلًا بعيوب الناس ناسـيًا لعيبـه فاعلموا أنه قـد مُكر بـه»[١].

ومـن هداياتهـا: ألّا تكـترث بمـدح المادحـين، فأنـت أعلـم بحـال نفسـك منهـم.

---

(١) صفة الصفوة (١٤٧/٢).

الآيات (١٦ ـ ١٩)

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

بعد أن حذّر وبيّن ووعد وتوعَّد، يأتي السؤال: كيف النجاة؟ والجواب: بالرجوع إلى القرآن.

وقد يسر الله حفظ هذا الكتاب المبارك، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

فلا بُدَّ من العناية بحفظه. سمعتُ أحد طلاب العلم يقول: تقدمت بي السن، فرأيتُ أحد كبار المشايخ ممن معه القراءات السبع، فقال: هل أنتَ حافظ للقرآن؟ قلتُ: لم أحفظه، وأظنني لا أستطيع أن أحفظه. قال: لماذا؟ قال: تقدمت بي السن، تجاوزت الأربعين. قال: كأني أراك حافظًا، وشجعني. يقول: وجاءت فرصة وبدأتُ أحفظ حتى ختمته، وقد سمعتُ هذا الرجل أكثر من مرة يتحدث أنه منذ سنوات لا يحتاج إلى أن يرجع إلى المصحف أبدًا، فإذا نسيت آية قلت ثلاث دعوات كلها في سورة الكهف:

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، يقول: فأتعوذ من الشيطان.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، فيقول: لا إله إلا الله.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]، فأسأل الله أن يهديني لأقرب من هذا رشدًا، يقول: فما أنتهي من الدعاء إلا أتذكر ما نسيته.

وهذا ذكر وتذكير ببعض ما يدل على فضل حفظ القرآن الكريم، فمن ذلك:

- أنَّ حفظ القرآن سنة مشى عليها من أمرنا الله بالتأسي به.

قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى].

● وحفظة القرآن عباد الله الذين أنجز بهم عهده، وأتم بهم وعده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، وحفظ القرآن نوعان: حفظ الصدور، وحفظ السطور، وقد كان الأول سبيل الثاني وأصله.

● وحفظ القرآن سبب للإكثار من التلاوة.

فمن جمع القرآن حفظًا كان مكثرًا من تلاوته، وتلاوة الحرف بعشر حسنات كما أخبر نبينا ﷺ.

● وحامل القرآن أحق الناس بإمامة الصلاة.

قال النبي ﷺ: «**يَؤُمُّ القَومَ أَقرَؤُهُم لكتاب الله**»[1].

● والنبي ﷺ قدَّم حفاظ القرآن في الدفن يوم أحد.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «**أَيُّهم أكثَرُ أخذًا للقُرآن؟**»، فإذا أُشيرَ لَهُ إلَى أَحَدهما قَدَّمَهُ في اللَّحد، وَقالَ: «**أَنا شَهيد عَلَى هَؤُلاء يَومَ القيامَة**»، وَأَمَرَ بدَفنهم في دمائهم، وَلَم يُغسَّلُوا، وَلَم يُصَلِّ عَلَيهم[2].

● ونبي الله ﷺ لا يقدّم إلا المقدَّم عند الله.

● وإكرام حافظ القرآن الكريم إجلال لله.

قال النبي ﷺ: «**إنَّ من إجلال الله إكرامَ ذي الشَّيبَة المُسلم، وَحامل القُرآن غَير الغالي فيه والجافي عَنهُ، وَإكرامَ ذي السُّلطان المُقسط**»[3]. والغلو: التشدد وتتبع ما تشابه منه، والجفاء عكسه، فهو ترك العمل به.

---

(١) مسلم (٦٧٣).

(٢) البخاري (١٣٤٣).

(٣) أبو داود (٤٨٤٣)، وهو في صحيح الجامع (٢١٩٩).

● وحفظ القرآن يعصم العبد من النار.

فعن عُقبَةَ بن عامر ﷺ قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**لَو أَنَّ القُرآنَ جُعلَ في إهاب ثُمَّ أُلقيَ في النّار ما احتَرَقَ**»(١)، وكم من حريق وقع ثم وُجد مصحف لم تلتهمه النار! فاللَّهُمَّ احفظ قلوبًا حفظت كتابك.

● وحفظه من موجبات الجنة.

فعَن عائشَةَ ﷺ، عَن النَّبيّ ﷺ قالَ: «**مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وَهُوَ حافظ لَهُ مَعَ السَّفَرَة الكرام البَرَرَة، وَمَثَلُ الَّذي يَقرَأُ وَهُوَ يَتَعاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيه شَديد فَلَهُ أَجران**»(٢).

وهذه الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، كقول ربنا: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

قال ابن القيم ﷺ: «ومن أسرارها أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدَّب بها نبيَّه أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه»(٣).

وإذا كان الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن الاستعجال بقراءة القرآن مع وجود سبب معتبر، وهو أنه كان حريصًا على حفظ القرآن، فمن باب أولى أن ينهى عن الإسراع المخل في قراءته، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾؛ العجلة قد لا تكون محمودة أحيانًا حتى في مقام الخير. ثبت عَن عَلقَمَةَ، والأَسوَد، قالا:

---

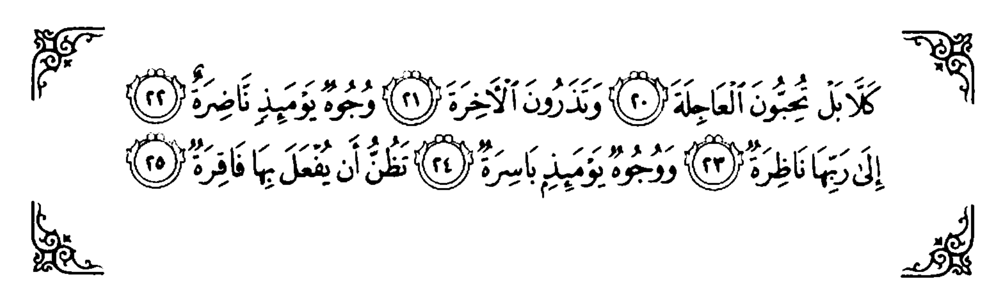
(١) أحمد (١٧٤٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٦٢).
(٢) البخاري (٤٩٣٧).
(٣) التبيان في أقسام القرآن، ص(١٥٩).

أَتَى ابنَ مَسعُود ﷺ رَجُل، فَقالَ: إِنِّي أَقرَأُ المُفَصَّلَ في رَكعَة، فَقالَ: «أَهَذًّا كَهَذ الشِّعرِ؟ وَنَثرًا كَنَثرِ الدَّقَلِ؟»(١).

وقد كان ﷺ حريصًا على حفظه لئلا ينسى منه شيئًا، ولهذا كان يعجل، فأخبر بالواجب، وتكفل الله تعالى له بجمعه في صدره، وتثبيت قراءته في لسانه، وأرشده إلى الطريق الأقوم، وهو اتباع قراءة الملك فإذا فرغ من الإقراء قرأ خلفه، وهو أثبت في الذهن وأدعى إلى عقل المعاني.

(١) أبو داود (١٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٦٢).

الآيات (٢٠ ـ ٢٥)



بعد أن بيَّن سبيل النجاة بين العارض وهو إيثار العاجلة على الآجلة، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾، وبعد كل هذا البيان لا زلنا نتهافت على هذه الدنيا، وذكر العلماء أن من أعظم أسباب الصدّ عن دين الله وعن الآخرة هو التهافت على الدنيا، وهناك كثيرون خُتمت له بخاتمة سيئة يُقال له عند موته: قل: لا إله إلا الله، فيقول كلامًا من كلام الدنيا؛ لأن قلبه كان معلقًا بها، نسأل الله حسن الخاتمة.

وليست الآفة حب الدنيا وحدها، بل تجتمع إليها آفة أخرى، وهي إغفال الآخرة وإهمالها، وإلّا لو أحب المرء الحياة واستثمرها للحياة الأبدية لم يقدم العاجلة الفانية على الآخرة الباقية لما كان مذمومًا.

وأبلغ علاج للآفتين المذكورتين هي تذكر الآخرة وما أعد الله فيهما لمن أحسن ولمن أساء، ولهذا أتبع ذلك بالترياق فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾، والنضرة: البهاء والجمال.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: أي ترى ربها ﷻ، وتأمل كيف هيأها الله قبل أن يشرفها بالنظر إليه.

وإذا كسيت هذه النضرة قبل النظر إلى ربها، فكيف بها بعده!

وإن روح الإنسان لتستمتع بلحظة من جمال إبداع صنع الله تعالى في الكون أو النفس، فكيف بها وهي تنظر إلى وجه الله ﷻ.

وهذه الآية تدل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم من وجوه ثلاثة:

● الأول: عُـدّي النظـر بــ(إلى) الدالة على الغايـة، والنظر إذا عُـدي بـ(إلى) دلَّ على المعاينـة بالأبصـار، وإذا عُـدّي بــ(في) كان بمعـنى التفكـر والاعتبـار، كمـا في قول الله تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإن عُدّي بنفسـه كان بمعـنى التوقـف والانتظـار، قـال تعـالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد: ١٣].

● الثـاني: أن النظـر في الآيـة إلى وجـه الله جَلَّجَلَالُهُ، كما جـاء في الأحاديث، ولا يُتصـوَّر في مثل هـذا إلا أن يكون معاينـةً بالبصر.

● الثالـث: خـلا الدليـل مـن قرينة تـصرف اللفـظ عن ظاهـره؛ فوجـب حمله على حقيقتـه وموضوعـه. ولا حجـة للمتأولين مُسـلَّمة!

ومـن الأدلـة القرآنيـة الـتي تُبيّن ذلـك وتـدل عليـه قـوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين].

قـال الطـبري رحمه الله: «ينظرون إلى ما أعطاهـم الله من النعيـم»[1]. وهذه الآية عامة تشـمل كل شيء يتمتعـون بالنظـر إليـه، ومن ذلك: النظـر إلى وجـه الله الكريم، فهو أكمل النعيم.

ومن الآيات الدالة على صحة هذا الاعتقاد قول الله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، ثبت عن صُهَيب رضي الله عنه، عَن النَّبيّ ﷺ قالَ: «إذا دَخَلَ أهلُ الجَنَّة الجَنَّةَ، قالَ: يَقُولُ اللهُ ﷻ: تُريدُونَ شَيئًا أَزيدُكُم؟ فَيَقُولُونَ: أَلَم تُبَيّض وُجُوهَنا؟ أَلَم تُدخلنا الجَنَّةَ، وَتُنَجّنا منَ النّار؟ قالَ: فَيَكشفُ الحجابَ، فَما أُعطُوا شَيئًا أَحَبَّ إلَيهم منَ النَّظَر إلَى رَبّهم ﷻ»، ثم قرأ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2].

---

(١) جامع البيان (٣٠/١٠٤).
(٢) مسلم (١٨١).

ومن الآيات الدالة على ذلك: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق]، فقد فسر أنس بن مالك ﷺ لها المزيد برؤية الله تعالى في الجنة(١).

ومن أدلة ذلك: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين]، قال الإمام الشافعي ﷺ: «لما حجب الكافرين حال السخط رآه المؤمنون في الرضى»(٢).

واستدل المخالفون من أهل الاعتزال ومن سلك طريقهم على نفي هذه العقيدة بدليلين:

● الأول:

قول ربنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف].

قالوا: الآية فيها نفي رؤية الله تعالى.

والجواب: أن (لن) لا تفيد النفي على التأبيد، كما قال ابن مالك في الكافية:

ومن رأى النفي بـ«لن» مؤبدًا … فقوله اردد، وسواه فاعضدا

ودليل ذلك من القرآن قول ربنا: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥﴾ [البقرة]، مع قوله عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف]، فهاهم تمنوه، لكن النفي في الدنيا، والتمني في الآخرة، فكذلك نفي الرؤية في الدنيا وإثباتها في الآخرة لأهل الجنة.

والصحيح أن يقال: إن هذه الآية من الأدلة على وقوع الرؤية؛ لوجوه منها:

■ الأول: أن موسى ﷺ سأل ذلك، ولا يمكن أن يسأل محالًا على الله تعالى، قال القرطبي ﷺ ـ مثبتًا رؤية الله في الآخرة، مستدلًا بهذه الآية ـ: «إذ لو لم

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/١٧٤ ـ ١٧٥).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣٥١).

تكـن جائـزة ـ أي الرؤية ـ لكان سـؤال موسى ﷺ مسـتحيلًا، ومحـال أن يجهل نبي مـا يجـوز على الله وما لا يجـوز»[1].

■ الثـاني: أن الله تعـالى لـم ينكـر عليـه ذلـك، فلـو كان غـير ممكـن لأنكـر عليـه كما عاتب نوحـًا ﷺ بقـوله تعـالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود].

■ الثالث: إذا جاز على الله أن يتجلى للجبل أفلا يتجلى لأوليائه في الآخرة؟!

● وأمـا الآيـة الثانيـة الـتي أرادوا بها نـفي الرؤية فـهي: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام].

فالجواب أن الإدراك شيء زائد على الرؤية، فهو يقتضي إحاطة، وتمام معرفة.

وأنـت في الدنيـا قد ترى مخلوقـا ولا تحيط به إدراكًا كالسـماء، فشـأن الله تعالى أجـلُّ، ونحـن نعلم ربنـا ونؤمن بـه، ومع ذلك لا نحيـط به علمًا سـبحانه.

ومـن أحـب أن يُكرمـه الله بهـذه النعمـة فعليـه أن يحـرص على أداء صلاتي الفجـر والعـصر في جماعـة، فقد قال النـبي ﷺ: «**إِنَّكُـم سَـتَرَونَ رَبَّكُم كَمـا تَرَونَ هَـذا القَمَـرَ لا تُضامُّـونَ في رُؤيَتـه فَإن استَطَعتُم أَن لا تُغلَبُوا عَلَى صَـلاة قَبلَ طُلُوع الشَّـمس وَقَبـلَ غُرُوبهـا فافعَلُـوا**»، ثُـمَّ قَـرَأَ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾ [ق][2]. والمعـنى: لا تُغلبـوا فتفوّتـوا هاتين الصلاتـين في جماعة[3].

وبعـد ذكـر حال الفريق الأول ذكـر الآخرين، فقـال: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾، وقـوله: ﴿بَاسِرَةٞ﴾ أي عابسـة مكدرة لما يغشـاها مـن الذل والهوان والخـوف والترقب لأليـم العذاب، كما قال: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾؛ أي عقوبة شـديدة تقصـم فقـار الظهـر، وهـذه كنايـة عـن الداهية الـتي تصيـب فتُقعـد، لا يملك من نزلـت بـه فـكاكًا ولا حيلة. نعـوذ بالله من غضبـه وموجبـات عذابه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٥).
(٢) البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).
(٣) انظر: فتح الباري (٢/٣٣).

الآيات (٢٦ ـ ٤٠)

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

بعد التذكير بالآخرة وما فيها، ذكَّرهم بحال قريبة لا تُستبعَد فقال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾، والتراقي جمع ترقوة، وهي معروفة، عظام في أعلى الكتف.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾، وذلك أن الشدة النازلة تدعو للبحث عن من يخفف عنه، ولا أبلغ بعد الإياس من الطبيب من الرقية، ولن يدفع القدرَ راق أو طبيب إذا بلغت الروح الحلقوم.

وأُشيرُ هنا إلى أدب رفيع ينبغي التخلق به: أنك إذا زرت مريضًا فلا تحوجه إلى طلب الرُّقية؛ إذ قد يتورع عن ذلك أملًا في أن يكون من الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولكن بادر برُقيته، فهذا لا يُعرّضه لإشكال الطلب، وفرق بين طلب الرقية وقبولها، فالطلب قد يتنزه عنه بعض ذوي الهمم لحديث عمران بن حصين رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**يَدخُلُ الجَنَّةَ من أُمّتي سَبعُونَ أَلفًا بغَير حساب**»، قالُوا: مَن هم يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**هُمُ الَّذينَ لا يَسترقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَلا يَكتَوُونَ، وَعَلَى رَبّهم يَتَوَكَّلُونَ**»[1].وأنفع شيء للمريض أن يباشر

(١) مسلم (٢١٨).

رقية نفسه بنفسه، قال ربنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل].

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾، والظن هنا اليقين، وتيقُّنُ المحتضر وأهله أنه مفارق.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «شدة آخر يَوم في الدُّنيا، وَأَوَّل يَوم من أَيَام الآخرَة، فَتلتَقي الشَّدَّةُ بالشّدَّة»(١).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾، وهذه تذكرني بقول بعض الناس لأعرابي في احتضاره: إنك ميت. فقال: ثمّ إلى أين؟ قيل له: إلى الله تعالى! قال: والله ما وجدنا الخير إلا من الله. وهذا قول الذي أعد للقاء ربه عدة، أما الآبق فحاله أخرى، كما قال الله تعالى:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾، فهذا حال الكافر في الدنيا.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يختال، عياذًا بالله.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، وهذا وعيد شديد لهذا الكافر؛ وليس فيه تكرار، «قال ابن قتيبة: هو تهديد ووعيد»(٢).

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، لا يؤمر ولا ينهى!

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، فلمَ التمطي والتكبر عن الطاعة ممن كانت النطفة المستقذرة أصله؟!

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، سبحانك فبلى.

وهذه تقال بعد قراءة هذه الآية كما مر معنا. أما حديث: «**كان إذا قرأ:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾[التين]، **قال: بلى**»، فضعيف جدًا(٣).

والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٢).
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٧٢)
(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٤٢٤٥).



بين يدي سورة الإنسان

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

«﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾»، و«﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾»، و«﴿ٱلدَّهۡرِ﴾»، «والأمشاج»، و«﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان واثنَتان وَأَربَعُونَ كلمة، وحروفها ألف وَأَربَعَة وَخَمسُونَ حرفا، وَهِي إِحدَى وَثَلاثُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيهَا اختلاف»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

عن أبي ذر ﷺ قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ حتى ختمها ثم قال: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا،**

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٧٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٠).

وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون»[١].

وعَن أَبي هُرَيـرَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقـرَأُ في الصُّبح، يَـومَ الجُمُعَة: ب: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ في الرَّكعَـة الأُولَى، وَفي الثَّانيَـة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾»[٢].

وأشير هنا إلى أربعة أمور:

● الأول: أنـه لا ينبـغي هجر هذه السُّـنَّة، فبعـض الأئمة تمر عليه الشـهور ولا يقـرأ هاتين السـورتين في فجـر الجمعة، وهذا مخالف للسـنة.

● الثـاني: الحكمـة مـن قـراءة هاتين السـورتين: أنهمـا يُذكّـران الإنسـان بيوم القيامـة، ولا يخـفى أن السـاعة تقوم في يـوم جمعة، والسـورتان مشـتملتان على ذكر الجنـة والنـار، وهما مـأوى كل إنسـان في الآخرة.

● الثالـث: بعـض الأئمة قد يقرأ سـورة السـجدة فقـط، أو يقرأ الإنسـان فقط، وهـذا لا حـرج فيه، لكن لم يـأت بالسُّـنَّة على وجهها.

● الرابـع: بعـض الأئمـة إذا لـم يقـرأ هاتين السـورتين قرأ سـورةً فيها سـجدة، وكأنـه يتصـور أن قـراءة سـورة السـجدة من أجل السـجدة الـتي فيها! وهـذا الفهم لا أسـاس له مـن الصحـة، وقـد أنكـر ابن القيـم ﷺ هـذا الفهم[٣].

موضوعاتها:

● إثبـات البعـث بالتذكـير بخلـق الإنسـان بعـد أن لـم يكن، فكيـف يقضي باسـتحالة إعادة تكوينـه بعـد عدمه؟!

---

(١) الحاكم في المستدرك (٥١٠/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).
(٢) مسلم (٨٨٠).
(٣) انظر: زاد المعاد (٢٠٢/١).

● إثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرًا لخالقه، ومحذَّر من الإشراك به.

● إثبات الجزاء للشاكرين والكافرين، والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

● الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد، ونعمة الإدراك، والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر، وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل، فانقسم الناس بهم إلى مؤمن وكافر.

● تثبيت النبي ﷺ على القيام بأعباء الرسالة، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بما اصطفاه له وبالإقبال على عبادته.

● الأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة[1].

مقصدها:

تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، والدعوة إلى الإيمان بالبعث ببيان حال المؤمنين والكافرين في الآخرة، والدعوة إلى العمل الصالح ببيان عاقبته.

---

(١) يراجع: التحرير والتنوير (٢٩/٣٧١).

سورة الإنسان: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٤)

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾

قيل: سُمي الإنسان إنسانًا لسببين: لأنه يأنس بغيره، ولأنه ينسى. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه].

وكل إنسان كان عدمًا، لم يكن شيئًا مذكورًا قبل ميلاده، وسينتهي إلى عدم، أما الله تعالى فـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾، مَن هو هذا الإنسان؟ قيل: آدم؛ أي أتى وقت لم يكن هناك آدم ﷺ، فالله ﷻ قد خلق كثيرًا من الخلق قبل آدم، كالملائكة والجن، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

قال الشوكاني ﷺ: «قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وقيل: إنه خُلقَ من طين أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خَلقُه بعد مئة وعشرين سنة. وقيل: الحين المذكور هنا لا

يعرف مقداره، وقيل: المراد بالإنسان بنو آدم، والحين مدة الحمل»[(١)]. وقيل المراد به جنس الإنسان فكل مولود مسبوق بعدم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أُريد به هنا نسل آدم ﷺ، فالناس أقسام أربعة:

● الأول: من خُلق من تراب بلا ذكر أو أنثى، وهو آدم ﷺ، قال ربنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم].

● الثاني: من خُلق من ذكر فقط، وهي حواء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ.

● الثالث: من خُلق من أنثى فقط، وهو عيسى ﷺ، قال ربنا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

● والرابع: من خُلقوا من نطفة من ذكر وأنثى، وهؤلاء عامة الخلق.

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾، «يَعني: ماءَ الرَّجُل وَماءَ المَرأَة إذا اجتَمَعا واختَلَطا، ثُمَّ يَنتَقِلُ بَعدُ من طَور إلَى طَور، وَحال إلَى حال، وَلَون إلَى لَون»[(٢)].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾، خصَّهما الله تعالى لأنهما أعظم الحواس، وهما طريقا الفهم والعقل عن الله، فلا يصل إلى العقل والقلب شيء إلا عن طريق السمع أو البصر؛ إما أن يسمعَ الحق أو أن يراه، وللإنسان مشاعر أخرى يدرك بها كاللمس والشم، لكنها لا تغني وحدها في الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾، ﴿كَفُورًا﴾، هذه الصيغة (فعول) دالة على شدة كفر الإنسان وعُتُوِّه! ولم يقل: شكورًا، بل ﴿شَاكِرًا﴾، وسر ذلك: أنه مهما عبد ربه فلن يبالغ في شكره، قد يأتي ببعض القدر الواجب عليه،

---

(١) فتح القدير (٥/٤١٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٥).

لكن لن يبلغ أحد المنتهى في ذلك[1]، ويوجد الشكور في عباد الله، ولكنهم قليل، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي خلقناه لنبتليه، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ، فالخلق والإيجاد والمد بالحياة والعقل نعَم، وهي موضع اختبار وبلاء: ماذا يصنع العبد بها؟

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، وهذه إن لم تحمل العبد على تجنُّب سبيل الكفار فلن ينتفع بعدها بشيء! ولم يرد في شأن الكافر من الوعيد في هذه السورة سوى هذه، وامتلأت السورة ببيان ما للمؤمنين من الأجر العظيم عند ربّ العالمين.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٢٢/١٩).

الآيات (٥ ـ ٢٢)

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

بعد أن اقتضب ذكر وعيد الكافر أسهب في بيان نعيم المؤمن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾، ومعلوم ما في الكافور من الرائحة الطيبة، وما سيكون في الجنة لا يقارن بما في الدنيا، ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، في الاسم، أما في حقيقة الأمر ففرق كبير.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أضافهم إليه تشريفًا لهم، وإشعارًا بأن ما هم فيه من النعيم بسبب عبادتهم التي جعلوها لله، ولم يجعلوا لغيره نصيبًا منها.

وأيُّ شرف أعظم من شرف العبودية؟ ولذا نَعَت بها نبينا ﷺ في أسمى مقاماته: قال ربنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١)﴾ [الكهف]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩)﴾ [الحديد].

ومن هم عباده؟ وما صفاتهم؟ ذكر الله ﷻ صفاتهم في آخر الفرقان، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا (٧٥) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ عُدّي الفعل بـ(الباء)، والأصل أن يُعدّى بـ(من)، فيقال

يشرب من العين، قالوا: ليُضمَّن معنى الإرواء، فهو شراب يبُلّ الصدى، ويذهب الظمأ، مع ما فيه من طيب الريح والطعم.

ثم قال في وصف بعض أعمالهم، وهذا مشعر بأنها المسببة لذلك الجزاء: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾، والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب لأمر ما. وهو مكروه، لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَنذروا؛ فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يُستخرَج به من البخيل**»[1]. لكن من نذر فيجب عليه الوفاء، ومن وفّ استحق من الله الثناء. وهنا أثنى عليهم بالوفاء، وقرنه بذكر الحامل عليه، وهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾؛ أي: فاشيًا شائعًا، قليل السلامُ فيه، فبعثُ النار هم الكثرة الكاثرة من بني آدم.

أما وصفهم الآخر ففي قوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، وهو بذل الطعام وهم يحبونه، لكنهم يُؤثرون به غيرهم، لا يُنفقون الفَضلات وما فاض، ولا الرديء وما خَبُث، بل المحبوب، وقد قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ويدخل في هذا سقيا الماء؛ فإنها طعام، قال ربنا: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**بينما رَجُل يَمشي بطَريق إذ اشتَدَّ عَلَيه العَطَشُ، فَوَجَدَ بئرًا، فَنَزَلَ فيها فَشَرِبَ، وَخَرَجَ، فَإذا كَلب يَلهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى من العَطَش، فَقالَ الرَّجُلُ: لَقَد بَلَغَ هَذا الكَلبَ من العَطَش مثلُ الَّذي بَلَغَ مِنّي، فَنَزَلَ البئرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمسَكَهُ بفيه، حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلبَ، فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». فَقالُوا: يا رَسُولَ الله وَإنَّ لَنا في البَهائم لَأَجرًا؟ فَقالَ:

---

(١) مسلم (٣٠٩٦).

«**في كُلِّ ذي كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ**»[١]، وعن سعد بن عبادة وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنهُم عن النبي ﷺ: «**أفضل الصدقة سقي الماء**»[٢].

وتأمل هذه القصة التي أوردها المنذري رحمه الله في الترغيب والترهيب بقوله: «قال البيهقي حكاية عن شيخنا الحاكم أبي عبد الله رحمه الله: إنه قرح وجهه، وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب، وبقي فيه قريبًا من سنة، فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابوني أن يدعو له في مجلسه يوم الجمعة، فدعا له، وأكثر الناس التأمين، فلما كان يوم الجمعة الأخرى ألقت امرأة في المجلس رقعة، بأنها عادت إلى بيتها واجتهدت في الدعاء للحاكم أبي عبد الله تلك الليلة، فرأت في منامها رسول الله ﷺ كأنه يقول لها: قولي لأبي عبد الله يوسع الماء على المسلمين، فجئت بالرقعة إلى الحاكم، فأمر بسقاية بُنيت على باب داره، وحين فرغوا من بنائها أمر بصب الماء فيها، وأخذ الناس في الشرب، فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء، وزالت تلك القروح، وعاد وجهه إلى أحسن ما كان، وعاش بعد ذلك سنين»[٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، لا نريد مجازاة منكم، ولا أن تشكرونا. فالمنفق المخلص لله لا يريد هذا، وإن كان المنفق عليه يتعيّن عليه أن يشكر من أكرمه، قال نبينا ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[٤].

ثبت عَن عائشَةَ رضي الله عنها أنها قالَت: «أُهديَت لرَسُول الله ﷺ شاة فَقالَ: «**اقسميها**»، فكنت إذا رَجَعَت الخادم قلت: ما قالُوا لَكِ؟ فتقول: بارَكَ اللهُ فيكُم، فأقول: وَفيهم بارَكَ اللهُ، نرد عَلَيهم مثلَ ما قالُوا وَيَبقَى أَجرُنا لَنا»[٥].

---

(١) البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).
(٢) رواه الإمام أحمد (٥/٢٨٤)، وأبو داود (١٦٧٩)، والنسائي (٣٦٦٦)، وابن ماجه (٣٦٨٤)، وهو في صحيح ابن خزيمة (٢٤٩٦)، وابن حبان (٣٣٤٨)، وانظر صحيح أبي داود للألباني (١٤٧٤).
(٣) الترغيب والترهيب (٢/٨٥).
(٤) البخاري في الأدب المفرد (٢١٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب (١٦٠).
(٥) النسائي في الكبرى (١٠٠٦٢)، وقال الألباني في «صحيح الكلم الطيب»، ص(١٧٥): إسناده جيد.

فـلا ينبـغي أن تطلـب دعاء مـن أطعمته! قـال ابن تيميـة ﷺ: «وَمن الجَـزاء أَن يَطلُـبَ الدُّعاءَ، قـالَ تَعـالَى عَمَّـن أَثـنَى عَلَيهـم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، والدُّعاءُ جَـزاء كَمـا في الحَديث: «**من أَسـدَى إِلَيكُم مَعرُوفًـا فَكافئُوهُ، فَـإِن لَـم تَجِدُوا مـا تُكافئُونَهُ به فادعُـوا لَهُ حَـتَّى تَعلَمُوا أَن قَـد كافَأتُمُـوهُ**»[1]»[2].

وتُعلّمنـا الآيـات الإحسـان إلى أسرى أعدائنـا، فدينُنـا يأمرنـا بذلـك. قال أبو هريـرة ﷺ: بَعَـثَ النَّـبيُّ ﷺ خَيلًا قبَـلَ نَجد، فَجاءَت بِرَجُل مـن بَني حَنيفَـةَ يُقالُ لَهُ ثُمامَـةُ بـنُ أُثـال، فَرَبَطُـوهُ بسـاريَة مـن سَـواري المَسـجد، فَخَرَجَ إلَيـه النَّبيُّ ﷺ فَقـالَ: «**مـا عندَكَ يـا ثُمامَةُ؟**»، فَقـالَ: عندي خَير يا مُحَمَّـدُ؛ إن تَقتُلـني تَقتُل ذا دَم، وَإن تُنعـم تُنعـم عَلَى شـاكر، وَإن كُنـتَ تُريدُ المالَ فَسَـل منهُ ما شـئتَ. فَـتُركَ حَتَّى كانَ الغَـدُ، ثُـمَّ قـالَ لَهُ: «**ما عندَكَ يـا ثُمامَةُ؟**»، قالَ: مـا قُلتُ لَكَ؛ إن تُنعـم تُنعم عَلَى شـاكر. فَتَرَكَـهُ حَتَّى كانَ بَعـدَ الغَد، فَقـالَ: «**ما عندَكَ يـا ثُمامَةُ؟**»، فَقـالَ: عندي ما قُلـتُ لَكَ. فَقـالَ: «**أَطلقُوا ثُمامَـةَ**». فانطَلَقَ إلَى نَجل قَريب من المَسـجد، فاغتَسَـلَ، ثُـمَّ دَخَلَ المَسـجدَ، فَقالَ: أَشـهَدُ أَن لا إلَهَ إلّا الله، وَأَشـهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يا مُحَمَّـدُ والله مـا كانَ عَلَى الأَرض وَجـه أَبغَـضَ إلَيَّ مـن وَجهـكَ، فَقَـد أَصبَـحَ وَجهُكَ أَحَـبَّ الوُجُـوه إلَيَّ، والله مـا كانَ من دين أَبغَـضَ إلَيَّ من دينكَ، فَأَصبَـحَ دينُكَ أَحَبَّ الدّيـن إلَيَّ، والله مـا كانَ مـن بَـلَد أَبغَضُ إلَيَّ من بَـلَدكَ، فَأَصبَـحَ بَـلَدُكَ أَحَبَّ البلاد إلَيَّ، وَإنَّ خَيلَـكَ أَخَذَتـني وَأَنـا أُريدُ العُمرَةَ فَمـاذا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُـولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَن يَعتَمـرَ. فَلَمّـا قَـدمَ مَكَّـةَ قـالَ لَهُ قائـل: صَبَـوتَ؟ قـالَ: لا، وَلَكـن أَسـلَمتُ مَعَ مُحَمَّـد رَسُـول الله ﷺ، وَلا والله لا يَأتيكُـم مـن اليَمامَـة حَبَّـةُ حنطَـة حَـتَّى يَأذَنَ فيهـا النَّبيُّ ﷺ[3].

---

(١) أبو داود (١٦٧٢)، وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد (١٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١/١٨٨).

(٣) البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

ونهى النبي ﷺ عن التفريق بين الأم وابنها في البيع، قال: «**مَن فَرَّقَ بَينَ الوالدَة وَوَلَدها فَرَّقَ الله بَينَهُ وَبَينَ أَحبَّته يَومَ القيامَة**»(١).

ولا يُكره الأسير على اعتناق دين الإسلام؛ لقول الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لكن يُدعى إلى الإسلام بحكمة وإحسان.

فأي أخلاق هذه التي جاء بها هذا الدين العظيم؟!

وإذا رغَّبت النصوص في الإحسان إلى أسرى الكفار، فكيف بالسعي لاستنقاذ أسرى المؤمنين؟! ثبت عَن أَبي مُوسَى ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فُكُّوا العانيَ**»(٢). أي: الأسير. وهذا أمر يقتضي الوجوب على من قدر عليه، والله المستعان.

وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾، خافوا في الدنيا، فأمنُوا من عذاب الله في الآخرة. قال ربنا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور]، وقال نبينا ﷺ: «**قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنَين ولا خوفَين، إن هو أمنني في الدنيا أخفتُه يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمَّنتُه يوم أجمع عبادي**»(٣).

ثم قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾﴾، قال الحسن البصري ﷺ: «النُّضرَةُ في الوَجه، والسُّرُورُ في القَلب»(٤)، وبين حال القلب وحال الوجه علاقة، فإن صورة الباطن تنعكس على الظاهر.

ثم قال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾﴾، فبشرى للصابرين!

---

(١) الترمذي (١٢٨٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٣٦١).
(٢) البخاري (٣٠٤٦).
(٣) أبو نعيم في الحلية (٦/٦٨)، وهو في صحيح الجامع (٤٣٣٢).
(٤) صحيح البخاري (٦/١٦٤).

والصبر مثل اسمه مر مذاقتُه   لكن عواقبه أحلى من العسل

والحرير لباس أهل الجنة، أما في الدنيا فهو مُحرَّم على الرجال دون الإناث، فعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: إنَّ نَبيَّ الله ﷺ أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ في يَمينه، وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ في شماله، ثُمَّ قالَ: «**إنَّ هَذَين حَرام عَلَى ذُكُور أُمَّتي**»[1].

ولما نفى عنهم رؤية الشمس، أتبعه بنفي ما يُتوهَّم من عدم إشراقها وهو البرد الشديد؛ فقال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾، وقيل الزمهرير القمر بلغة بعض العرب، والصحيح أن الزمهرير هنا هو البرد الشديد، فأفاد ذلك اعتدال هوائها، وأجمل ما يكون الاتكاء في حدائق غناء، عند خضرة وماء، وهواء حسن، فجمع ذلك على أكمل الوجوه لأولئك الخائفين شر ذلك اليوم، وبرهان خوفهم بذلهم الطعام لضعفاء لا يُرجى من ورائهم رفد، وكذلك وفاؤهم بالنذور؛ وهذا دال على غيره، فإن من وفى بما ألزم نفسه به من الطاعة التي لا تجب عليه من حيث الأصل فهو أقرب وفاءً بالطاعة الواجبة عليه أو المفروضة بأصل الشرع.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾، يكون الشراب عَلَى قَدر ريّهم، هذا معنى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[2]، وهكذا ينبغي أن يكون شرب المؤمن على قدر ريّه فلا يملأ كأسه بما يفيض عن حاجته فيهدره أو يتكلف شربه، ولا يقصر عن حاجته.

ثم قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾، كأسًا؛ أي: خمرًا، فتارة يمزج شرابهم بالكافور، وتارة بالزنجبيل. وأما المُقرَّبون فيشربون منهما صرفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

---

(١) أبو داود (٤٠٥٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٧٧).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢٩١/٨).

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين]. فيشرب المُقرَّبون ماء تسنيم صرفًا.

ثم قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾، ولدان في غاية الجمال والبهاء، يسعَون في نواحي الجنة لخدمة أهلها كاللؤلؤ المنثور.

فأين زوجاتهم؟ ألا يقمن على خدمتهم؟ الجواب: لا؛ فهن مُكرَمات مُنعَّمات، لا يخدمن فيها.

وإذا كان هذا نعت الخدم: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، فكيف بمن يخدمونهم؟!

قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، وتأمل في شأن أدنى أهل الجنة منزلةً، تعرف عظمة ما هم فيه! ثبت عَن ابن مَسعُود ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «آخرُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ رَجُل، فَهوَ يَمشي مَرَّةً، وَيَكبُو مَرَّةً، وَتَسفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإذا ما جاوَزَها التَفَتَ إلَيها، فَقالَ: تَبارَكَ الَّذي نَجّاني منك، لَقَد أَعطاني اللهُ شَيئًا ما أَعطاهُ أَحَدًا منَ الأَوَّلينَ والآخرينَ، فَتُرفَعُ لَهُ شَجَرَة، فَيَقُولُ: أَي رَبّ، أَدنني من هَذه الشَّجَرَة فَلأَستَظلَّ بظلّها، وَأَشرَبَ من مائها، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يا ابنَ آدَمَ، لَعَلّي إنَّ أَعطَيتُكَها سَأَلتَني غَيرَها، فَيَقُولُ: لا، يا رَبّ، وَيُعاهدُهُ أَن لا يَسأَلَهُ غَيرَها، وَرَبُّهُ يَعذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبرَ لَهُ عَلَيه، فَيُدنيه منها، فَيَستَظلُّ بظلّها، وَيَشرَبُ من مائها، ثُمَّ تُرفَعُ لَهُ شَجَرَة هيَ أَحسَنُ منَ الأُولَى، فَيَقُولُ: أَي رَبّ، أَدنني من هَذه لأَشرَبَ من مائها، وَأَستَظلَّ بظلّها، لا أَسأَلُكَ غَيرَها، فَيَقُولُ: يا ابنَ آدَمَ، أَلَم تُعاهدني أَن لا تَسأَلَني غَيرَها، فَيَقُولُ: لَعَلّي إن أَدنَيتُكَ منها تَسأَلُني غَيرَها، فَيُعاهدُهُ أَن لا يَسأَلَهُ غَيرَها، وَرَبُّهُ يَعذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبرَ لَهُ عَلَيه، فَيُدنيه منها فَيَستَظلُّ بظلّها، وَيَشرَبُ من مائها، ثُمَّ تُرفَعُ لَهُ شَجَرَة عندَ باب الجَنَّة هيَ أَحسَنُ منَ الأُولَيين، فَيَقُولُ: أَي رَبّ، أَدنني من هَذه لأَستَظلَّ بظلّها،

وَأَشرَبَ مِن مائها، لا أَسأَلُكَ غَيرَها، فيَقُولُ: يا ابنَ آدَمَ، أَلَم تُعاهِدني أَن لا تَسأَلَني غَيرَها، قالَ: بَلَى يا رَبّ، هَذه لا أَسأَلُكَ غَيرَها، وَرَبُّهُ يَعذِرُهُ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبرَ لَهُ عَلَيها، فيُدنيه منها، فَإذا أَدناهُ منها فَيَسمَعُ أَصواتَ أَهلِ الجَنَّة، فيَقُولُ: أَي رَبّ، أَدخلنيها، فيَقُولُ: يا ابنَ آدَمَ ما يَصريني منكَ؟ أَيُرضيكَ أَن أُعطيَكَ الدُّنيا وَمِثلَها مَعَها؟ قالَ: يا رَبّ، أَتَستَهزِئُ مِنّي وَأَنتَ رَبُّ العالَمينَ؟»، فَضَحِكَ ابنُ مَسعُود، فَقالَ: أَلا تَسأَلُوني مِمَّ أَضحَكُ فَقالُوا: مِمَّ تَضحَكُ؟ قالَ: هَكَذا ضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقالُوا: مِمَّ تَضحَكُ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «مِن ضَحِك رَبِّ العالَمينَ حينَ قالَ: أَتَستَهزِئُ مِنّي وَأَنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ فَيَقُولُ: إنّي لا أَستَهزِئُ منكَ، وَلَكنّي عَلَى ما أَشاءُ قادر»[1].

وأعظم ما جاء في وصف الجنة: عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قالَ الله: أَعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لاَ عَين رَأَت، وَلاَ أُذُن سَمعَت، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلب بَشَر»[2].

وما أحسن ما قاله ابن القيم ﷺ في نعتها:

فلله بردُ العيش بين خيامها
ورضاتها والثغر في الروض يبسمُ
ولله أفراح المحبين عندما
يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة
فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأمُ

---

(١) مسلم (١٨٧).
(٢) البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

فيا نظـــرة أهـــدت إلى الوجه نضرةً

أمن بعدها يســـلو المحـــب المتيمُ؟

فـــحي على جنـــات عـــدن فإنهـــا

منازلـــكَ الأولى وفيهـــا المخيـــمُ

ولكننا ســـبيُ العـــدو فهـــل تُرى

نعـــود إلى أوطاننـــا ونســـلمُ؟

وقـــد زعمـــوا أن الغريـــبَ إذا نأى

وشـــطّت به أوطانـــه فهـــو مغرمُ

وأي اغـــتراب فـــوق غربتنـــا التي

لها أضحـــت الأعـــداء فينا تحكم؟

فبينـــا هُـــمُ في عيشـــهم وسرورهم

وأرزاقهـــم تجـــري عليهم وتُقســـمُ

إذا هـــم بنـــور ســـاطع أشرقت له

بأقطارهـــا الجنـــات لا يُتوهـــمُ

تجـــلى لهـــم ربُّ الســـماوات جهرة

فيضحك فـــوق العرش ثـــم يكلمُ

ســـلام عليكم يســـمعون جميعهم

بآذانهـــم تســـليمه إذ يســـلمُ

يقول: ســـلوني ما اشـــتهيتم فكلُّ ما

تريـــدون عنـــدي أنني أنـــا أرحمُ

فقالوا جميعًـــا: نحن نســـألك الرضا

فأنـــتَ الذي تولي الجميـــل وترحمُ[1]

---

(١) حادي الأرواح، ص(١٢).

ثـم قال تعالى: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، والسـندس مـا رقّ من الحرير، والإسـتبرق: مـا غلظ منـه[١]، وكله ناعـم لين، ولكل موضعـه الملائم له.

ثـم قـال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾، وهـو خمـر طاهـر من كل قـذر، قال ربنـا: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وتأمـل كيف أسـند الله السـقي إليه سـبحانه؛ تشريفًـا لهـم، وذلك كائـن بأمره ﷻ.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾، لما تركوا جزاء العباد ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، جازهم الكريم سبحانه، فمن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

---

(١) يراجع: جامع البيان (٢٤/١١٢ ـ ١١٣).

الآيات (٢٣ ـ ٣١)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

لما فصَّل نعيم أهل الجنة، أرشد إلى الطريق الموصِّل إليه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾، فأمر بالصبر، وأشار إلى ما يُعين عليه، وهو الإقبال على القرآن، فمن أقبل عليه وجد كل ما يُعينه على عبادة الصبر، ففي القرآن بيان لعاقبة الأبرار، وهذا يُحمل على الصبر على الطاعات، وفيه الزجر والنذارة والوعيد، وهذا يُحمَل على الصبر عن معصية الله تعالى، وفيه ذكر ما لأهل البلاء من الجزاء، وهذا يُحمَل على الصبر على مُرِّ القضاء.

ومن جُملة الصبر: الصبر على أعداء الله فلا يُتركون من غير دعوة ولا يُطاعون في مُراداتهم ومُشتهياتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾،

أَي: «لا تُطع الكافرينَ والمُنافقينَ إن أَرادُوا صَدّك عَمّا أُنزلَ إلَيكَ»[١].

ومما أرشد إليه تعالى أيضًا ـ وهو معين على الصبر وموصل إلى الرضوان ـ الذكر، وأجَلُّه الصلاة، فقال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾، في أول النهار وآخره، وسبق حديث عند تدبر قول ربنا: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ [المزمل]، عن الترغيب في الإكثار من ذكر الله تعالى والأمر بذلك، فليس الشأن أن تذكر ربك فقط، وإنما الشأن أن تُكثر من ذلك، فالمنافقون يذكرون الله، لكنهم لا يذكرونه إلّا قليلًا.

وقوله ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾؛ يعني: أول النهار وآخره، وذلك يشمل الصلوات الخمس، وما يتبعها من النوافل، والأذكار، وما يندرج في تلك الأوقات من وظائف اليوم والليلة، فمن حافظ عليها خرج عن حد الغفلة، ودخل في جملة الذاكرين. وبعد أن ذكر ﷺ طرفي النهار وما يشتملان عليه بينهما من الوقت، ذكر وظيفة الليل فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾، والمقصود بالسجود الإكثار من الصلاة، وعبَّر عنها به لكونه من أعظم أركانها، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولما عبَّر عن الصلاة بالسجود خصَّ بالذكر ما يكون فيه فقال: ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾، وقوله: ﴿طَوِيلًا﴾ مجمل تفصيله في سورة المزمل في قوله: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾؛ أي الكفار: ينهمكون في دنياهم رضا بها وإعراضًا عما سواها، وفي التعقيب بهذه الآية بعد ذكر الصلوات تنبيه على أن سبب كثير من تضييعها هو الإنهماك في الدنيا ولذاتها، مع الإيثار لها، وأن من استحضر ثقل يوم القيامة لم تثقل عليه في الدنيا.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٩٤).

وقـوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ إلخ، فيه تقرير للبعث، ولخطر الانغماس في الدنيا، وجعلها الهمَّ كله، بالدليل العقلي، «وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة قادر على أن يُعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال: ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم»[١].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾، سبحان ربنا! يعظنا ولا يَأطرنا على الأمر أو يُرغمنا، وهو قادر على إلحاق العذاب بنا! وقد دلت هذه الآية على أن للإنسان قدرة، ولذا فإن ربنا لا يكون ظالمًا له إذا عذَّبه بإعراضه، لأن له قدرة واختيارًا، فلم يكن مكرهًا. وقول أهل السنة في هذه المسألة وسط بين ضلالتين: بين ضلال الجبرية الغلاة الذين ينفون عن العبد الاختيار، ويجعلون أفعالَه كحركات لا إرادية، وبين القدرية الذين يجعلون العبدَ خالقًا لفعله، خارجًا عن قدر مشيئة الله وخلقه، فأهل السنَّة والجماعة يُثبتون أن للعبد مشيئةً واختيارًا، بهما يستحقُّ الثوابَ والعقابَ، ويقولون: إن مشيئتَه تحت مشيئة الله تعالى الحكيم في أفعاله، الذي يوفق كل معدن إلى ما هو حقيق به، قال الله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾، وفي ختم هذه الآية بذكر العلم والحكمة تنبيه على أن قوله بعدها: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ مبناه على علم تام بمن يستحق الرحمة، ومن لا يستحقها، وحكمة

---

(١) تفسير ابن سعدي، ص(٩٠٣).

بالغة قضت بالتمييز بين القاسط والمقسط، والمسيء والمحسن، وقوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ دون جنته فيه تنبيه آخر على أن استحقاق الجنة فرع عن رحمة الله تعالى الذي وفقه للإحسان، وأثابه على القليل بالكثير. نسأل الله أن يعاملنا برحمته، ويجعلنا أهلًا لجنته.

وختامًا من تأمل في العبادات المتنوعة التي ذكرت في هذه السورة وجد:

- منها ما هو واجب ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، ومنها المستحب، كقيام الليل.
- ومنها اللازم في كل وقت، وهي عبادة الخوف من الله، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾، ومنها المؤقت بوقت معين ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.
- ومنها ما هو قلبي، كعبادة الخوف من الله، ومنها البدني كالصلاة التي عبَّر عنها بالسجود ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، ومنها ما يكون باللسان: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٥]، ومنها ما هو مالي: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان].
- ومنها ما أوجبه الله كالصبر، ومنها ما أوجبه الإنسان على نفسه، وهي النذر، وذلك يُشعر بأن أهل الجنة الذي يتقلبون في النعيم الظاهر والباطن، يتقلبون في هذه الدنيا في منازل العبودية الظاهر والخفية، وذلك فضل الله يمنُّ به على من يشاء، جعلنا برحمته من أهله، وهو المستعان وعليه الجهد والتكلان، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.



بين يدي سورة المرسلات

وهي مكية عند جمهور المفسرين[١].

أسماؤها:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، المرسلات، والعُرف[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئة وَإحدَى وَثمانُون كلمة. وحروفها ثَمان مئة وَستَّة عشر حرفًا. وَهي خَمسُونَ آية في جَميع العدَد لَيسَ فيها اختلاف»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

عَن عَبد الله بن مسعود ﷺ، قالَ: بَينَما نَحنُ مَعَ النَّبيّ ﷺ في غار بمنًى، إذ نَزَلَ عَلَيه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ وَإنَّهُ لَيَتلُوها، وَإني لَأَتَلَقَّاها من فيه، وَإنَّ فاهُ لَرَطب بها، إذ وَثَبَت عَلَينا حيَّة، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**اقتُلُوها**»، فابتَدَرناها، فَذَهَبَت، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وُقِيَت شَرَّكُم كَما وُقِيتُم شَرَّها**»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٤١٨/٢٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦١).
(٣) البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

وعَن ابن عَبّاس ﷺ، أَنَّهُ قالَ: إنَّ أُمَّ الفَضل سَمِعَتهُ وَهُوَ يَقرَأُ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَقالَت: «يا بُنَيَّ، واللهِ لَقَد ذَكَّرتَني بقراءَتكَ هَذه السُّورَةَ، إنَّها لَآخرُ ما سَمعتُ من رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقرَأُ بها في المَغرب»[1].

وعنه ﷺ، قالَ: قالَ أَبُو بَكر ﷺ: يا رَسُولَ اللهِ قَد شبتَ، قالَ: «**شَيَّبَتني هُود، والواقعَةُ، والمُرسَلاتُ، وَعَمَّ يَتَساءَلُونَ، وَإذا الشَّمسُ كُوِّرَت**»[2].

وعَن عَلقَمَةَ، والأَسوَد، قالا: أَتَى ابنَ مَسعُود ﷺ رَجُل، فَقالَ: إنّي أَقرَأُ المُفَصَّلَ في رَكعَة، فَقالَ: «أَهَذًّا كَهَذِّ الشِّعر، وَنَثرًا كَنَثر الدَّقَل؟! لَكنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقرَأُ النَّظائرَ السُّورَتَين في رَكعَة، الرَّحمَنَ والنَّجمَ في رَكعَة، واقتَرَبَت والحاقَّةَ في رَكعَة، والطُّورَ والذّاريات في رَكعَة، وَإذا وَقَعَت وَنُونَ في رَكعَة، وَسَأَلَ سائل والنّازعات في رَكعَة، وَوَيل للمُطَفِّفينَ وَعَبَسَ في رَكعَة، والمُدَّثّرَ والمُزَّمّلَ في رَكعَة، وَهَل أَتَى وَلا أُقسمُ بيَوم القيامَة في رَكعَة، وَعَمَّ يَتَساءَلُونَ والمُرسَلات في رَكعَة، والدُّخانَ وَإذا الشَّمسُ كُوِّرَت في رَكعَة»[3].

موضوعاتها:

«الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا.

وصف بعض أشراط الساعة.

الاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض.

وعيد منكريه بعذاب الآخرة.

وصف أهوال الآخرة.

---

(١) البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٢) الترمذي (٣٢٩٧)، وهو في صحيح الجامع (٣٧٢٣).

(٣) أبو داود (١٣٩٦)، وصححه الألباني في صفة الصلاة، ص(١٠٥).

التعريض بعذاب الله للمكذبين باليوم الآخر في الدنيا كما استؤصلت أمم مكذبة من قبل، ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين، وإعادة الدعوة إلى الإسلام والتصديق بالقرآن لظهور دلائله»[١].

مقصدها:

الدعوة إلى الإيمان بالبعث واليوم الآخر، بذكر مآل المؤمنين والكافرين فيه، وبعض الأدلة على قدرة الله عليه.

(١) التحرير والتنوير (٤١٩/٢٩).

سورة المرسلات: تأملات ووقفات

هـذه السـورة سـورة قويـة الملامـح، فظيعـة المشـاهد، شـديدة الإيقـاع، كأنها سـياط من نار. يُواجه الكافر فيها سـيلًا من الاسـتفهامات والاسـتنكارات والتهديد، تنفُـذ إليه كالسـهام المسـنونة، تكـرَّر فيهـا قوله تعـالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

قـد يطـرح بعضنا سـؤالًا: لماذا هـذا التركيز الشـديد على قضية اليـوم الآخر في عـدد من السـور في القرآن؟ والجـواب: لأن من بُعـث فيهم النبي ﷺ كانـوا يُنكرون البعـث إنـكارًا شـديدًا، فالحديـث مـع كل فئـة بمـا يناسـبهم، ومـن أجـل ذلـك امتـلأت السـور المكية بالحديـث عنه.

وإنَّ مـن الأمـارات الـتي تـدل على نجـاح الداعيـة أنه إذا جـاء إلى بلد سـأل: ما الذي يحتـاج إليـه أهل هـذا البلد؟ وهذا منهـج الأنبيـاء، اتفقت دعوتهـم على إفراد الله بالعبـادة، ثـم تمـيز كل واحـد بالدعـوة إلى قضيـة يحتـاج إليهـا قومـه، فنبي الله لـوط ﷺ أكـثر من نهيهـم عن الفاحشـة التي لم يُسـبقوا إليها، وشـعيب ﷺ حدثهم عن خطـر التطفيـف، وهكذا.

ولأنـه بدون الإيمـان بالبعث لن يعمل الإنسـان خيرًا، ولاسـيما مـع طول الأمل وتعاقـب الأجيـال والانهمـاك في الدنيا ولهذا فإنـه لا غناء لأحد عـن التذكير به.

الآيات (١ ـ ١٤)

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١)﴾، المرسلات قيل: الريح، قال ربنا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقيل: الملائكة وهم رسل الله. وقيل: الرسل. و﴿عُرْفًا﴾، قيل أرسلت بالعُرف ضد النُّكر أي المصلحة والحكمة، وهذا مناسب لحمل المرسلات على الملائكة أو الرسل، وقيل متتابعة من «عُرف الفرس، لأنه طرف مستو، بعضه في إثر بعض، فاستعير للقوم يتبع بعضُهم بعضًا»[1]، وهذا يلائم حمل المرسلات على الرياح ويلائم حملها على الملائكة والرسل أيضًا.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾، قطع صحابيان بأنها الريح، وهما: علي بن أبي طالب، وابن عباس، [2]، يقال: عصفت الريح، إذا سُمع صوتُ هبوبها، وقيل إنها الملائكة تعصف بأجنحتها إذا انتقلت.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾، قيل: الملائكة، وقيل: الريح، فإن الله ينشر السحب بها، قال ربنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣٨٣/٤).
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٢٩٧/٨).

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ أي: الملائكة التي تنزل بالوحي المفرّق بين الحق والباطل. ومن فوائد الآية: أن الصدع بالحق يترتب عليه تفرق الناس إلى فريقين، فالقرآن فرق بين الحق والباطل.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾، الملائكة التي تنزل بالوحي إلى أنبياء الله ﷺ، فهو ذكر للمتقين، إما إعذارًا وإما إنذارًا.

قلت وهذا الأخير يُقرِّب أن الفارقات والناشرات هي الملائكة، كما أن قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ يقرب أن المرسلات هي الرياح العاصفات إذ هو قسم مُستأنَف، والأصل أن يُغاير القسمَ الأول، فالذي يظهر أن المرسلات مراد بها الرياح وكذا العاصفات، وأن الناشرات مراد بها الملائكة وكذا الفارقات.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾، هذا هو جواب القسم، فهو قسم على تحقُّق وقوع يوم القيامة.

ثم ذكر بعض أهواله وما يكون فيه، فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾، أَي: ذَهَبَ ضَوؤُها، كَقَوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير]، وَكَقَوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾؛ أي: شُقَّت، وصُدعت وفُتحت، وعندها تصير أبوابًا تنزل من خلالها وتصعد ملائكة وأهوال.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾، قال ربنا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ [طه]. فإذا قيل: جاء في موضع آخر: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير] وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧﴾ [الكهف]، فهل هناك تعارض؟ فالجواب: لا تعارض؛ فسُيّرت: زالت عن أماكنها، ونُسفت: لم يبقَ لها أثر، ولا تعارض لاحتمال أن تكون لها حال تنتقل بعدها إلى أخرى.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾، من التوقيت، أي: بلغت وقتها الذي كانت تنتظره، وهو يوم القيامة، للقضاء بينهم وبين أقوامهم»(١).

وهذا الوقت مُؤجَّل لزمان معدود، وأجل مكتوب، ولذا قال: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣﴾. يوم الفصل بين الحق والباطل، وبين الكافر والمؤمن، وبين المحسن والمسيء، وبين الظالم والمظلوم، وفي هذا عزاء للمؤمنين، والمظلومين، ولأهل البلاء، والمحسنين.

---

(١) تفسير الآلوسي (٢٩/١٧٢).

الآيات (١٥ ـ ٢٨)

وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

هذه الآية التي تكررت عشر مرات[1] في هذه السورة ذكرتني قصة حدثني بها أحدُ مشايخنا[2]، قال: جاء رجل زنديق، وقال: إن القرآن فيه تكرار، ويحتاج إلى شيء من الاختصار.

قالوا: كيف؟

قال: مثلًا في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وردت إحدى وثلاثين مرة، تكفي واحدة! وفي سورة المرسلات: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وردت عشر مرات، وهذا تكرار لا معنى له! تكفي مرة واحدة!

---

(١) تكررت غير وردت، وكثير من الناس يخلط بينهما، فقد وردت إحدى عشرة مرة، وتكررت عشر مرات.
(٢) وهو شيخنا عبد الله الفنتوخ ، وكان عميد كلية الشريعة عندما كنا طلابًا فيها بين عام ١٣٩١ ـ ١٣٩٤ هـ

فبلغ الوالي في ذلك الوقت قولُ هذا الزنديق، فناداه، قال: هل صحيح ما بلغني عنك؟

قال: وما بلغك؟ فذكرَ له ما بلغه.

قال: صحيح.

قال له: لمَ تُحذف؟

قال: مكررة، ولو اختصرنا القرآن لكان أسهل في الحفظ، إلى غير ذلك من سفسطة لا معنى لها سوى الكفر بالله.

فقال: لكن نحن نحتاج إلى اختصار من نوع آخر قبل أن تبدأ بمشروعك، فأنتَ عندك يدان، تكفي واحدة، قال: اقطعوا يده. عندك عينان، فأمر بقلع واحدة. عندك رجلان، فأمر بقطع رجل. عندك أذنان فقطع إحداهما. وهكذا حتى انتهى به الأمر إلى أن قُتل. ولو أن زنادقة عصرنا وجدوا مثل هذا الوالي لانتهى سفههم وكفرهم، ولارتاح الناس من شرهم.

وتكرار هذه الآيات يدل على أهمية التكرار في الخطاب الدعوي، لكن ما الذي يُكرَّر؟ ومتى يكون التكرار؟ وما هو قالب التكرار الذي تقدم المعلومة فيه؟ هذا ما يحتاج إلى الحكمة والفهم الثاقب، كما هو منهج القرآن.

جاء بعضُ طلاب العلم لسماحة والدنا الشيخ عبد العزيز ابن باز ﷺ، فذكروا له منكرًا وطالبوه بتغييره، فقال الشيخ: سأحاول، سأبذل جهدي، وأنتم ابذلوا جهدكم، اكتبوا..

قالوا: يا شيخ، كتبنا.

قال: كم كتبتم؟

قالوا: مرة أو مرتين.

قال: أنا أحيانًا أكتب في المنكر الواحد للمسئولين قرابة خمسين كتابًا. خمسين مرة يكتب في المنكر الواحد! ولا ييأس! لعل الله أن يشحذ همته لتغيير المنكر.

والعجيب أن بعض الناس إذا كان له مطلب من مطالب الدنيا تجده يحاول مرات عديدة، ويبحث عن الشُّفعاء، ويختار الأوقات، وإذا جاءت فرصة لم يضيعها، هذا لأمر الدنيا، فأمور الآخرة أولى بالصبر عليها.

والمراد بقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾، قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، والسؤال إنكاري؛ لعدم اعتبارهم بهم.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ كقوم موسى ﵇، وفي التعبير بالمضارع ما يفيد أن تلك سُنَّة متجددة حادثة في الأقوام من بعدهم، قال ربنا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر].

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾، وهذا وعد يُثلج صدور المؤمنين، فأهل الإجرام كثير، لكن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

قُل لأهل الباطل والإجرام في كل عصر ومصر: يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وكم في المقابر من مجرم مكذب حق عليه العذاب! ثبت في الصحيحين، عن ابن عُمَرَ ﵄ أنه قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَهلِ القَليبِ، فَقالَ: «**وَجَدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا؟**»، فَقيلَ لَهُ: تَدعُو أمواتًا؟ فَقالَ: «**ما أَنتُم بأَسمَعَ منهُم، وَلَكن لاَ يُجيبُونَ**»[1]. وإيمان المؤمن بصنيع الله في المجرمين مما يُعزّي به المظلوم نفسه.

---

(١) البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٢٨٧٤).

ويُطلق الهلاك في كتاب الله على الموت، ولو كان صاحبه صالحًا، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، وقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾، تعنيف للمجرمين المنكرين للبعث، فيمَ الإنكار؟! والله تعالى قد خلقكم من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟ أفيُعجزه أن يُعيد خلقه! إن في خلق الإنسان عبرةً وآيةً على القدرة، نطفة تُقذف في الرحم فتستقر فيه، ويُمسكها حتى تكون إنسانًا مُستتمَّ الأعضاء، له ثقل وحركة وشؤون! إلى أَجَل الميلاد! ومن تدبَّر ذلك عَلم أن الذي خلق ربّ قدير لا يعجزه شيء.

والأثر المسلكي الذي يترتب على العلم بذلك: التواضع، وعدم التكبُّر، والاستقامة؛ للتحقُّق من تدبر وقوع يوم الجزاء.

وكيف يستكبر من خُلق من ماء مهين؟! يروى أن مُطرّف بن عبد الله بن الشخّير رأى المُهلَّب وهو يتبختر في جُبَّة، فقال: يا عبد الله هذه مشية يُبغضها الله ورسوله. فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أوَّلُك نُطفة مَذرة، وآخرتك جيفة قَذرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذرة! فمضى المهلب وترك مشيته تلك[1].

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾، فامتنَّ عليهم بعد الميلاد بما أنعم عليهم، من أرض تجمعهم، كفاتًا. «قالَ الشَّعبيُّ: بَطنُها لأمواتكُم، وَظَهرُها لأَحيائكُم، وَكَذا قالَ مُجاهد وَقَتادَة»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٩٩).

واستُدلَّ بهذه الآية على أن القبر حرز للكفن، فمن سرق كفنًا فقد سرقه من حرزه[١].

ومن فوائد الآية وجوب الدفن. قال القرطبي ﷺ: «وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه»[٢].

وأوّل دَفن فيها ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

ثم ذكر ما أرسى به الأرض من الجبال نعمةً أخرى، وما أجرى في ظاهرها أو أخرج من باطنها أو أنزل إليها من المياه العذبة التي يشربها الناس.

(١) التلقين في الفقه المالكي (٢/٢٠١).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/١٦١).

الآيات (٢٩ ـ ٥٠)

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

بعد التقرير بالنعم جاء التحذير بذكر مصير من أصرَّ على التكذيب ولم يعتبر: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾، هذا في الدنيا.

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، يعني أنَّ دخان جهنم إذا ارتفع منها صار ثلاث شُعَب[1].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: لا يُظلُّ من الحر، ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾: لا يرد لهيب النار عنهم.

﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾﴾، الشرارة منها كالبناء العظيم، والجمالات:

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/٣٠٦).

بكسر الجيم جمع جمالة وهي اسم جمع طائفة من الجمال، أي تشبه طوائف من الجمال متوزعة فرقًا، والتشبيه الأول في عظَم حجمه، والثاني مُركَّب يشمل ما يبدو للناظر من حركته ولونه وثقله، وهو بكل حال مشهد فظيع يحدث الذكرى عند العقلاء.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أطلقوا العنان لألسنتهم في الدنيا في وسائل إعلامهم بالسَّب، والنَّيل من أهل الصلاح، وفي الآخرة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾، أسكت الله جارحتهم التي يحاربون بها دينه، كما حشر من عمي عن الهدى في الدنيا أعمىً في الآخرة، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، وعدم نطقهم هو في بعض مقامات القيامة، وفي بعض المقامات الأخرى يتلاومون، ويصطرخون، وفي يوم القيامة مواقف خزي وندامة شتى للمكذبين به.

وفي تسمية يوم القيامة في هذا الموضع بيوم الفصل إشعار بأخذ الحق للمؤمنين المظلومين ممن ظلمهم من أهل الفجور والكفر والخنا، وسبَّهم، واحتقرهم، وكاد لهم.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾، تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم، وزيادة في ندامتهم، وليعلموا أن ما كادوا به عباد الله ﷺ كان كيدًا بهم ووبالًا في العاقبة عليهم.

وبعد أن توعد المكذبين ذكر نعيم المتقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾، لكنها ظلال وارفة ظليلة، ليست كظلال الكفار ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ﴾، أي لا يظلهم فهو دخان، ولا يغني عنهم من لهيب النار وحرها.

والجنة لا شمس فيها، وينشئ الله الظلال لأهلها، وكان ربك قديرًا.

وقوله: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾، فيه إجمال فصل في مواضع، قال ربنا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، فتتعدَّد هذه النعم حسب تعدُّد شهواتهم.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فالعمل الصالح سبب لما هم فيه من النعيم، قال ربنا: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

فهذا هو الذي يتفاضل الناس به عند ربهم. قال نبينا ﷺ: «**وَمَن بَطَّأَ به عَمَلُهُ، لَم يُسرع به نَسَبُهُ**»(١).

وفي قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾، ما يدل على أن العبرة بإحسان العمل، لا بكثرته، قال ربنا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك]، ما قال: أكثر عملًا، بل: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾. فلذلك علينا الاهتمام بإحسان العمل، لا بكثرته فقط، وإذا كان العمل كثيرًا صوابًا فهذا خير على خير، ونور على نور. ولهذا المعنى قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «إذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع»(٢).

ومن تأمَّل القرآن وجد تركيزًا على قضية الإحسان وبيان ما له عند الله من الثواب، قال ربنا: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة]،

---

(١) مسلم (٢٦٩٩).
(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص(٦٥).

وقـال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج].

ثم قـال تعـالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾، مجرمون ولـم يحرمهـم الله تعـالى مـن الطعـام والـشراب في الدنيا، كمـا قال سـبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقـرة].

وتـدُلُّ هـذه الآيـة على أن أيـام الدنيا مهمـا طالت فـهي قليلة، وليسـت بشيء، إذا مـا قيسـت بالآخـرة مهمـا عاش المـرء فيهـا فإنما هـو متاع قليـل، وتأمَّـل قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقـرة: ٩٦]، أقـصى مـا كان يتمنـاه أولئـك الكفار لـو يُعمَّـر الواحد ألـف عام، ولو أن واحـدًا من هؤلاء الذيـن عاصروا التنزيـل عُمِّـر ألـف عام لـكان أجلـه قبـل أربعمئـة سـنة، وسـاعة واحـدة في حفـرة مـن نـار في قبره تُنسـيه كل حـلاوة وجدهـا في الدنيـا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طـه].

ثـم قـال تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، لا يركعـون في الدنيـا، وهـم يدعون إلى السـجود ولا يسـتجيبون، وسـيُدعَون إليه في الآخرة ولا يسـتطيعون، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلـم]، ولـو سـألت مؤمنًـا حيل بينه وبـين وضـع جبهتـه على الأرض في سـجوده لقـال لك: لا أجد أشـدَّ علي مـن ذلك!

وذكـر أمـر الركـوع في ختام هذه السـورة مما يـدل على أهمية شـأن الصلاة، فهي العلامـة الفارقـة، والفيصـل بـين أهـل النعيم المقيـم، وأصحـاب العـذاب الأليم، الذيـن لهـم الويـل جـراء تكذيبهـم، الذي لا مُسـوّغ له فقـد جاءهـم خـير حديث وأعظـم بيـان، مـن لـم ينتفـع بـه لـن ينفعـه شيء، ومـن لـم يهتد بـه فلـن يهتدي أبـدًا، إلّا إلى طريـق جهنـم، وسـاءت مصيرًا.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة